

مؤلف رائعة ملذّات طوكيو

دوريان سوكيغاوا

يويتشي والطير



الكتاب

يويتشي والطير

تأليف

دوريان سوكيغاوا

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى، 2021

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-979-1

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

دوريان سوكيغاوا

مكتبة | 978
سُر مَن قرأ

يويتشي والطير

رواية

ترجمة: حسين عمر



المركز الثقافي العربي

العنوان الأصلي للرواية:

KARASU NO JOHNSON

نُشرت أولاً في اليابان عام 2018 من قِبل POPLAR PUBLISHING CO., LTD.

نُشرت بالعربية بالاتفاق مع POPLAR PUBLISHING CO., LTD.

ممثّلاً بـ Japan UNI Agency, Inc. و The Agency srl

1



أكان السمع؟ أم البصر؟

لم يتذكّر ما بدأتْ به الحكاية.

فيضٌ من ومضات النور، وحفيفُ أوراقٍ: هذه هي أولى ذكريات جونسون.

تحت أشعّة الشمس، كانت سُعُف شجرة أرز الهيمالايا تشكِّل سرباً لا متناهياً من الإبر المتشابكة.

بجانبه، كتلٌ بأحمرٍ داكن، ذات عيونٍ واسعة كأطباقٍ.

واحدٌ، اثنان. ومعه، صاروا ثلاثة.

متلاصقين ببعضهم، كانوا يشاهدون معاً لعبة الظلام والنور بين أوراق الشجر.

ولكن، لا شكّ أنّ منقاره هو الذي عمل قبل كلّ شيء، والحال هذه، قد يكون المنقار هو أوّل ما ظهر، وما تبقّى، جناحاه وجسمه، عيناه وأذناه، رجلاه وجناحاه، وذاكرته أيضاً، كل شيء كان يخرج منه، ويرتبط به.

وُلِد جونسون حينما رغب منقاره أن يحيا.

قبل أن يرى أو يسمع، أفلت منه صوته.
دون أن يعرف ما هو، زقزق جونسون.

2

كانت إبَر شجرة الأرز تهتزّ في انسجام.
وتتماوج برشاقة.
(ريحٌ)
كانت الأغصان تتقصّف. وخلف الأوراق، ترقص سحبٌ كثيفة.
يتحرّك شيءٌ شفّاف غير مرئي في هبوبٍ.
يتحرّك، ويهزّ كلّ شيء.
في كلّ تأرجحٍ للعشّ، كانت الكتل ذات اللون الأحمر الداكن تحتكّ به بلطفٍ بأجنحتها الصغيرة.
معاً، فتحوا أفواههم، زقزقوا.
ظهر شبحٌ ضخمٌ، دسَّ شيئاً رطباً في منقار جونسون.
عندما تهبّ الرياح قويّة، حتى جذع الأرز يئنّ.
تأرجحت الشجرة. اختلج عشّهم.
تدحرج جونسون يميناً ويساراً.
الشبح الضخم، القريب جدّاً منهم، غطّاهم بجناحيه اللذين كانا أكبر منهم بعشرات الأضعاف.

3

ظهرت طبقة رقيقة من الغيوم، مخفيةً زرقة السماء.

السماء التي ابيضّت، مالت إلى الرماديّ الغامق، انتفضت وفتحت أبوابها للرياح.

تراقصت إبَر الأرز، ملتويةً. لم تُثر الصخب المعتاد نفسه.

هطلت آلاف الزخّات.

(مطرٌ)

هطلت الزخّاتُ على رأس وظهر وجناحَي جونسون، المغطيَين بزغبٍ خفيف.

كان مبلّلاً.

مبلّل جدّاً.

يتقطّر ماءً.

جاره، وجار جاره، الشبح الضخم وحتى السماء، انغمرَ الجميعُ.

فتح جونسون منقاره والتقط مطراً.

سُمِعَ صوتٌ خفيف لسقوط القطرة في قاع حلقه.

سالت قطرة ماء على إبَر شجرة الأرز أمامه، شبيهة بالزئبق.

في القطرة المدوّرة، انحبست صورة السماء.

4

كان الشبح الضخم كلّ شيء بالنسبة إلى جونسون.
(أمٌّ)
حينما كان يفتح منقاره، كانت تضع له الطعام الرطب.

5

عند غروب الشمس، اصطبغت السماء باللون البرتقالي.
كسَت ومضاتها حتى إبَر الأرز.
عبرت السماء ومضاتٌ أرجوانية وحمراء داكنة. تمازجت معها لمساتٌ بنفسجية وخضراء.
كنسَت هبّة رياحٍ هوجاء كلَّ شيء. كفرشاةٍ تعيد صبغ السماء.
مالت الألوان إلى أزرقٍ داكن.
ظهرت نقاطٌ مضيئة. تلألأت. تأمّلته من عَتمةٍ بعيدة.
(نجومٌ)

6

لم يحلم جونسون بعد.

7

«قاق!».

وضع جاره جناحاً عليه.

فتحَ جونسون عينَيه بتمهُّل.

بدت له الأغصان وإبَر الأرز بوضوح.

كانت السماء تتهيّأ لتتحوّلَ من الأزرق البحري إلى البرتقالي.

«قاق!».

فتحَ جونسون منقاره. أجاب:

«قاق!».

«قاق!».

«قاق!».

كان لجارِ جاره صوت غريب.

كان طرف منقاره ملتوياً. لم يكن فكّاه ينطبقان بشكلٍ سليم.

كان هزيلاً، بالمقارنة مع الآخَرين. كان جناحاه لا يزالان بلون اللَّحم.

حينما تهبُّ الرياح، كان يرتعش.

بدأ النهار.

(صباحٌ)

لكن كاك، جاره الأبعد، كان يرتجف.

8

أحياناً، كان شبحٌ أسود ضخم، شبيه بشبح أمّه، يأتي ويحطّ على العشّ.

عندما تلامسُ ظلالٌ بنيّة أو بيضاء شجرةَ الأرز، تُطلق أمّه نعيقاً ثاقباً.

لكن الأمر مع هذا الشبح كان مختلفاً. كانت تسجع من أعماق حنجرتها. صرخةٌ أكثر عمقاً.

حطَّ الشبح على غصن من شجرة الأرز، وقفز على حافة العشّ. خطت أمّه خطوة جانبية. مع نعيقٍ خافت، تشبّث الشبح بعلّاقة نافرة مصنوعة من سلكٍ معدنيٍّ. وأخيراً، دخل إلى العشّ. وهكذا تفحّص جونسون وأخوَيه.

ذات يوم، نقرَ بمنقاره السميك رأس كاك، الفرخ الأبعد.

انقلب كاك على جنبه في صمت. لم يستطع أن يجثم محافظاً على توازنه.

بينما كان الشبح في العشّ، طارت أمّه. ثمّ عادت مع شيءٍ في منقارها.

قطعة صغيرة من اللَّحم الأحمر الداكن، شبيهة بأجنحة جونسون وجارَيه.

حاولت أن تدسّها في منقار كاك.

في الحال، خطفَ جاره القطعة. انقضّت أمّه عليه لتستعيدها منه.

انقلبَ الفرخ على ظهره. ولكنّه لم يترك القطعة.

9

لم تكن أمّه حاضرة.

ولا الشبح الآخر أيضاً.

(ليلٌ)

لمعَت نجمةٌ حمراء في قمّة شجرة الأرز.

كان كاك يرتجف.

لم يتوقّف جاره عن ركله بقدمَيه.

10

نعقت أمّه طويلاً.

عندما فتح جونسون عينَيه، لم يعد كاك يتحرّك.

انطبق منقاره بشكلٍ سيّئ، هدأ، متصلّباً، وعيناه مرفوعتان إلى السماء.

راقبت أمّه الكتلة الصغيرة التي شكّلها كاك. فجأةً، بدأت تنقره.

في الشرق، توهّجَت الشمس حمراء اللون.

وتأرجحَت إبَر شجرة الأرز المدبّبة، وكلّها ذهبية.

في كلّ ضربة منقار، كان كاك يرتخي. لم يعد يتحرّك. لم يعد يرتجف.

شقَّ صوت أمّه عنان السماء.

وزقزق جارُه بعنف. وطرف جناحٍ على ظهر جونسون، حاول أن يتسلَّل إلى حضن أمّه.

عُوقِبَ بركلةٍ من القدم.

11

تيبّس كاك، هامداً تماماً.

انشقّت أجفانه، وابيضّت مقلتاه. تسلّقت حشراتٌ صغيرة عليه.

أخذته أمّه بين منقارها. رفعته.

كان متيبّساً تماماً، ضعيفاً تماماً.

دعته يسقط ثانية في العشّ.

ركل جاره كاك المكوّم أمامه بقدمه.

من جديد، أخذَت أمّه كاك بين منقارها.

ثمّ ألقت به من فوق حرف العش.

في سقوطه، اصطدم بأغصان شجرة الأرز.

12

«قاق!».

كان جاره يخفقُ بجناحَيه.

جناحان مغطيان بريشٍ حديث النمو.

«قاق!».

خفقَ جونسون بدوره بجناحَيه. في جوف العشّ، تطايرت ريشةٌ سوداء كبيرة متساقطة من ريش الأم.

«ايه!».

رفع جاره منقاره.

كانت ظلالٌ سوداء عديدة تعبر السماء.

تابعاها ببصريهما.

فتح جاره منقاره واسعاً جدّاً بحيث ظهر قاع حلقه. حرّك جناحَيه بعنف أكبر.

فعل جونسون الشيء نفسه.

تماوجت المِزَق البلاستيكية المتشابكة في العشّ. لم يستطع أيّ منهما أن يمتنع عن خفق جناحَيه.

صلّب جاره رجليه.

قلّده جونسون، ولكنّه عبثاً تخبّط. إذ لم تغادر رجلاه قاع العشّ.

«آه!».

أقلع جاره. ارتطم رأسه بحرف مأواهما.

خفّق جونسون مرّة أخرى بجناحَيه.

أثار ذلك الريحَ، فتراقصت المِزَق البلاستيكية تحت قدمَيه.

ولكن مخالبه ظلّت عالقة. وأبَت أن تغادر العلّاقة المصنوعة من سلكٍ معدني.

لم يكن جسمه يحوم في الهواء بعد.

13

كانت أمّه تجلبُ من حينٍ إلى آخر زيزاً حيّاً بين فكّي منقارها.

كانت الحشرة التي تحاول الإفلات من منقارها تصرصر بكلّ قواها وهي تخبط بغمد جناحَيها وأرجلها.

كانت الأمّ تنقر على السلك المعدني للعشّ. وكانت الحشرة تنتهي، عموماً، مسحوقةً أو ممزّقة.

لم يكن جونسون ماهراً في ابتلاع الزيزان.

أحياناً، حينما لم تكن الحشرة مسحوقةً إلّا جزئياً، كانت أرجلها لا تزال تتحرك، فتعلق في حلقه.

وإذا ما التقطها بطرف منقاره بحذر، اختطفها منه جاره.

كان يسرق كلّ شيء. هذا كلّ ما كان يجيد فعله.

في قرارة نفسه، هكذا سمّاه جونسون: سارق.

14

صرير الزيز هيغوراشي في نهاية ما بعد الظهيرة. وصرير الزيز كومازيمي في نور الصباح. إنّهما إيذانٌ ببدء الخريف.

الآن، أصبح سارق أطول قامةً من جونسون.

وأقوى منه أيضاً.

حينما يركله بقدمه، يفتح جونسون منقاره.

يسقط الزيز منه، فيستولي عليه سارق.

15

تصرصر الزيزان بكلّ قواها.

تتراكم سحبٌ ضخمة، حاجبةً السماء شيئاً فشيئاً. سحبٌ

سميكة، تتوهّج قمّتها بالبياض، ولكن الظلمات تتورّم في أسفلها. وفي الحال، امتلأت الرياح بالرطوبة.

أمّه التي ركّزت نظرها على السُّحب الثقيلة المسطّحة، كانت تنعق بصوتٍ خفيض.

ألصقَ جونسون جناحَيه بجسمه.

كان سارق أيضاً، ممدّد الرقبة، ينظر إلى السحب التي تبتلع الأُفُق.

فوق رؤوسهم مباشرةً، زأر الجوّ. رعدت السماء بصرخة قويّة، كما لو أنّها ستتمزّق.

ومضت بروقٌ أسفل الغيوم.

حول شجرة الأرز، حلَّ الظلام. امتلأت الرياح بالمطرِ.

انهمرت خطوطٌ عَمودية، متحرّكة، متزاحمة، وغزت حقل الرؤية أمامهم. كما لو أنّ ستارة واسعة، شاسعة، أُسدِلَت.

تحوّلت السماء فجأةً إلى العتمة، غارقة في الظلمات. اقتربت الخيوط متراقصةً.

«ما هذا؟».

أفردَ سارق جناحَيه بطيشٍ. فانقلب إلى الخلف. هبّت الرياح على دفعات قويّة.

في اللَّحظة التالية، تساقطت قطراتٌ كبيرة على رأس جونسون.

باغتَت أجفانه ومنقاره وجناحَيه، وكلّ جسمه، فراح يتكوّر على نفسه.

أخذته أمّه تحت جناحها. جاء سارق أيضاً يلوذ بحضنها.

ألقى جونسون نظرة مذعورة على الخارج.

ضياءٌ كما لو أنّ السحب تنفجر. بروقٌ تخطِّط السماء، أعقبها رعدٌ في الحال. دويّ فرقعةٍ خارقة.

كان جونسون يرتجف، وسارق الملتصق به، يرتجف مثله.

ضياءٌ. دويٌّ. والجو الذي ينفلق.

حتى جذع شجرة الأرز بدأ يئنّ.

ركله سارق برجله. أفلت جونسون جزئياً من حماية جناح أمّه. انهمر عليه المطر.

اهتزّت شجرة الأرز بقوّة. تبعها العشّ، متحرّكاً باضطراب.

انبثقت الهجمة من عاصفة مطرية جلبتها رياحٌ عاصفة كالإعصار.

النور.

أين بزغَ؟ كان جونسون مرتبكاً، حائراً.

أبهره النور، منبعثاً من جوف السحب.

سطع النور.

حتى المطر صرخ؛ انتفض العشّ.

نورٌ. برقٌ. تمزّقٌ.

بدأ العش، المائل، بالانزلاق.

فأطلقت أمّه أنيناً حادّاً. صرخةٌ طويلة وعميقة انبعثت من الأحشاء.

نبرةٌ لم يكن قد سمعها منها أبداً، والتي دوّت في أذنَيه طويلاً.

فسرّها على أنّها سلسلةٌ من الأصوات التي لها مغزى.

(كلمات)

انحفر صوتها في ذاكرته.

تحت وابلٍ من المطر، رفع عينَيه نحو منقار أمّه.

كانت السماء غاضبة. تُحدّق فيها أمّه بعينين واسعتين.

سجّل جونسون كلّ ما كان موجوداً في حقل رؤيته. كانت صرخة أمّه موجّهة للنور الذي خطَّط الظلمات. للدويّ الذي فلقَ السماء. أو للقوّة الهائلة التي كانت مصدره.

اهتزّت الأغصان بعنف. تطايرت إبَر أشجار الأرز، المصفوعة بالريح، في كلّ اتجاه. لم يكتفِ المطر بالهطول، انهمرَ عليهم من كلّ الاتجاهات، مرتدّاً عن أجسامهم في حزمٍ.

رياحٌ. زوابعٌ. رشقاتٌ من المطر. ارتطامٌ عنيف.

انزلق العشّ أكثر. انفتحت ثقوبٌ في تشابك الأغصان والأسلاك المعدنية. تسرّب منها المطر. انفكّت أغصان متشابكة. تحرّك سارق ليأخذ كلّ المكان تحت جناح أمّه. ضرب جونسون برجلَيه. تطاير غصنٌ مكسور. ارتطمَ بجناحه.

واصل سارق ضربه. أفلت جونسون من حماية أمّه.

هبّت عليه الريح. تعثّرت رجلاه ببعضهما. فقدَ توازنه. غريزيّاً، أفرد جناحَيه.

أغشت ستارة المطر بصره. رفرف بجناحَيه عشوائياً.

ارتفعت رجلاه.

كان قد أقلع!

في نفس اللَّحظة، حدث انفجارٌ ضوئي. هزّه الانفجار. قذفته الريح.

نقرت الأمّ على رأس جونسون الذي كان على وشك الانطلاق إلى خارج العشّ. سقط إلى الوراء داخل العشّ. غطّته أمّه بجناحها.

سواد الريش والظلمة الداكنة. عبر شقٍّ، لمحَ الضوء الذي كان يخطّط السحب.

16

طبعاً، الغربان لم تكن الوحيدة التي أرهبتها هذه العاصفة العاتية.

واضعاً يديه فوق أذنَيه، واقفاً أمام النافذة، كان يويتشي يشاهدُ البروق التي رسمَت خطوطاً ضوئية في السماء. يُنير البرق الأنحاء فتصبح كما لو أنّها في وضح النهار، وتقطع بوضوح معالم مباني المجمّع السكني التابع للبلدية ذي الإيجار المنخفض. كان المطر المنهمر يتّخذ تلوينات فضّية تحت البروق.

«هذا مدهش!».

دوّى رعدٌ في الجوّ. رفع يويتشي صوته ليغطّي على صوت الرعد:

«لا تسقط هنا!».

أبعد يدَيه عن أذنَيه وأخرجَ قميصه من تحت سرواله. تفحّص سرّته.

إله الرعد سارقٌ للسُّرَر، كما كان يُقال. لم يعد في سنّ تصديق ذلك. ولكنّه أيضاً لم يكن مطمئناً بأن يجدَ نفسه وحيداً ذات مساءٍ عاصف. أعاد قميصه إلى مكانه وشدّ حزامه بقوّة.

«تعال واسرقها مني إن كنتَ قادراً!».

في اللَّحظة نفسها، وقعَ البرق قريباً جدّاً. فوق مانع الصواعق في المبنى. لمعَ وميضٌ مبهِر، وهزَّ الدويّ الغرفة.

انكمشَ يويتشي على نفسه أمام النافذة وسقط إلى الخلف.

17

استمرّ الرعد في الدويّ.

أخرجَ الصبي رأسه من تحت لحافه لينظر إلى الخارج.

عند كلّ وميضٍ، كان النور ينبعث في السماء.

فكّر في أمّه.

هل أخذت معها مظلّة؟

كيف ستعود، وسط هذه العاصفة الرهيبة؟

18

كانت شجرة الأرز قد فقدَت الكثير من أغصانها. وتعرّت قمّتها جزئياً.

لم يبقَ فيها سوى عشٍّ مشوَّه، لم يكن معلّقاً سوى بخيطٍ.

بعد العاصفة، أصبح الطقس جميلاً وفي أحسن أحواله.

تأمّل جونسون الفناء الرمادي.

في الطرف الآخر، تصطفّ أشكالٌ مثلّثة، حمراء. يبدو كلّ مثلّث أكبر بكثير من المساحة المحدَّدة بأغصان شجرة الأرز.

في الساحة، تتقدّم علبٌ مستطيلة وتتراجع. مزوّدةً بصفٍّ من الدوائر السوداء، تتحرّك باعثةً ضجيجاً مصمّاً. كانت هناك أيضاً

علبٌ أصغر حجماً، بلونٍ أصفر لامع. وكانت هذه ترفع أشياءَ، تذهب وتجيء بين المثلّثات والمستطيلات.

لكن ما كان يلفت نظر جونسون أكثر، هي الكائنات الحيّة التي تتحركّ هنا وهناك، بين كلّ هذه الأشكال. كان هناك البعض منها في كلّ مكانٍ من الفناء.

من هناك، كانت المثلثات تمتدّ، إلى ما لا نهاية على ما يبدو، في أشكال غير منتظمة. كما كان هناك عددٌ من الخطوط المستقيمة التي تصعد نحو السماء، يُطلق أحدها خيط دخانٍ شبيهاً بغيمة سوداء.

نعقت أمّه فوق قمّة الشجرة: «بَشَرٌ».

«بَشَرٌ».

كان صوتها يشير إلى شيءٍ ما. وقد فهم جونسون ذلك مباشرةً. ولكن ماذا؟ كان يجهله.

البشر، هل كانوا المثلثات الحمراء؟ المستطيلات التي كانت تدوّي؟ أم الكائنات الحيّة المتناثرة هنا وهناك؟

«بَشَرٌ».

قلّد سارق نعيق أمّه.

19

ظلٌّ مجهولٌ يحوم الآن حول شجرة الأرز.

بطنه أبيض، وجناحاه بنيّان. يحوم عالياً في السماء، أعلى بكثير من قِمَم الأشجار. ولكنّه، أحياناً، ينزل فجأةً إلى الأسفل.

حينما يظهر، تنكمشُ رقبة وجناحا جونسون.

كان ذلك بسبب صوت أمّه.

تنعق بقوّة باتجاه الظلّ، كما لو أنّها تستعدُّ للانقضاضِ عليه.

كان سارق أيضاً ينعقُ ملء رئتَيه.

يحاول جونسون أن يقلّدهما. دون جدوى. لم ينجح في النعيق مثلهما.

20

تغطّى جناحا سارق بريشٍ لامع.

ريشٌ أسود.

حسب النور، كان الريش يتلوّن بتلوينات عابرة خضراء داكنة أو زرقاء غامقة.

ظهرت على جناحَي جونسون بقعةٌ من الريش الخفيف. أصغر حجماً من ريش سارق.

تؤول له دائماً الحصّة الأكبر من الغذاء الذي تجلبه أمّه.

كانت أيضاً ركلة رجله قويّة.

«قاق!».

توجّه جونسون إليه هو أوّلاً.

«قاق!».

تكرّم سارق بالردِّ عليه. ولكنّه كان يضربه أحياناً بمنقاره.

21

حلَّ الصباح.

رسم الشبح البني دائرةً حول قمّة شجرة الأرز.

أبعدته أمّه بصرخاتها.

22

حلّت الظهيرة.

جثَمَ الشبح البنّي على مثلّثٍ، في الجانب الآخر من الفناء. ثمّ دار عدّة مرّات حول شجرة الأرز.

عندما مرَّ بالقرب منهم، لمحَ جونسون منقاره.

منقارٌ أكثر سماكةً من منقار أمّه. معقوفٌ. حادّ.

بعينَيه الذهبيّتَين، تفحّصَ الشبح عشّهم، وهو يمرّ.

23

جلبَت أمّه زيزاً.

ارتمى سارق عليه. لم يحظَ جونسون سوى ببعض الفُتات من بطنه.

عادت أمّه مع زيزٍ آخر.

مرّة أخرى، استولى سارق عليه. أمسكا، هو وجونسون،

بمنقارَيهما به، لكنّ سارق كان أقوى. اضطرّ جونسون للاكتفاء بالجناحَين.

غادرت أمّه مرّة أخرى.

في الفناء، كانت العلب المزوَّدة بصفوف من الدوائر تُصدرُ دوياً. وتتحرّك الكائنات الحيّة حولها.

هزّت صدمةٌ قمّة شجرة الأرز.

عتّم العشّ.

من دون سابق إنذار.

انتصبَ الشبح البنّي خلف سارق.

في عينَي جونسون، بدا ضخماً. رغم ضمّ جناحيه، كان أكبر من أمّه بمرّتَين.

نظر إليه سارق، جاحظاً. لم يستطع جونسون، متصلّب الرقبة، أن يشيحَ ببصره عن الشبح البني.

دون خفقٍ بالجناحَين، وفقط بقوّة الرجلَين، قفز قفزةً. وبحركةٍ في الهواء، جثم على حرف العشّ الذي انزلق بصخبٍ عالٍ.

كان سارق ساكناً. مقطوع الأنفاس، ينظر إلى جونسون. ثمّ أغمض عينَيه.

دوّت طقطقةٌ: كان الشبح البني قد أطبقَ منقاره على جمجمة سارق، الذي تخبّط بجناحَيه باهتياج. وسرعان ما اختفى رأسه في حلق الآخر.

طقطقت عظامٌ. اخترقَت العينان الذهبيتان جونسون. كان مذعوراً، وهو يرى جناحَي سارق يخفقان بيأس. سحقهما الشبح البنّي على حافة العش.

في عمق المنقار السميك، كان سارق ينعق بكلّ قواه.

تتخبّط رجلاه في الهواء.

تشنّجت رجلاه اللتان ضربه بهما كثيراً.

نفضَ الشبح البنّي سارق وضربَ جسمه عدّة مرّات على حرف العشّ الذي ارتجّ من جديد. سقط شيءٌ من خلال الثقب الذي كانت العاصفة قد فتحته. باتَ جونسون، الملتصق بجدار العشّ، مشلولاً.

لفظَ الشبح البني، مثبّتاً نظره عليه، سارق من منقاره.

محطّم الرأس، وقد بات الآن كتلة من اللَّحم الأحمر، لم يعد يشبه أيّ شيء. كان أحد جناحَيه محطّماً، بينما لا يزال الآخر يخفق.

انغرسَ المنقار المعقوف في بطن سارق. نبشَ معدته، ممزّقاً الجلد. سقطت الأحشاء على الأغصان، فالتهمَ المنقار المعقوف كلّ شيء كما لو أنّه يمتصه.

كانت رجلا سارق لا تزالان ترتعشان.

أمسكَ بهما الشبح البنّي بين فكَّيه. وضربهما بالعشّ من جديد.

لم يعد سارق سوى كتلة من اللَّحم. التهمها الشبح البنّي قطعة قطعة. دون أن يرفعَ نظره عن جونسون.

كان جونسون، مذعوراً وصامتاً، يحاولُ يائساً أن يفردَ جناحَيه. ولكنّه لم يستطع أن يطير.

وحتى لو نجحَ في ذلك، كان يعرف ما الذي ينتظره.

وحينئذٍ، هاجمَ الآخرُ.

كان المنقار المعقوف لا يزال يتقطّر أحشاءَ سارق. اخترقت نهايته الحادّة جناح جونسون. تطاير ريشٌ. جُرِح طرف جناحه.

تركَ نفسه ينزلقُ إلى الفتحة في قاع العشّ. فتحةٌ تبرز منها أسلاكٌ معدنية حادّة وأغصانٌ رفيعة، تكفي فقط لمرور جسم فرخٍ مثله.

طق.

أصاب المنقار رأسه.

نزلَ جونسون أكثر. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للإفلات منه.

كانت الأسلاك المعدنية النافرة من العشّ تخز جذعه وذيله.

طق. طق.

اصطدمَ المنقار الذي انقضّ عليه بالأسلاك المعدنية والأغصان. كان قريباً جدّاً من رأسه. وكان من المستحيل أن ينزل أكثر. سقطت عليه أحشاء سارق وفضلاته.

أغمض جونسون عينَيه.

فكّر في جناح أمّه.

ليتني استطعتُ أن أختبئ تحت جناح أمّي!

فكّر مجدّداً بالنور الذي انبعث من بين الغيوم.

ليته استطاع أن ينبثق في صخبٍ!

طق.

نكشَ المنقار رأسه، ممزّقاً الجلد.

اصطبغ حقل رؤيته باللون الأحمر.

فتح منقاره. متشبّثاً بكلّ قواه بالكلمات التي أطلقتها أمّه أثناء العاصفة، نعق مثلما كانت قد فعلت.

طق.

تحت الصدمة، حامَ جسمه.

تغيّرت أحاسيسه.

هذه الخفّة التي تذوّقها مرّة وحيدة، ليلة العاصفة. أحسّ جونسون بالزخم نفسه.

في الوقت نفسه، كان يسبحُ في حلمٍ. ظهر له منقار أمّه، يسحبه خارج الثقب. ولكن كلّا. ربما هو الشبح الأسود الضخم الذي كان يأتي أحياناً إلى العشّ. الشبح الذي كانت أمّه تتفاهم معه جيّداً.

أخذته على جناحَيها.

نعم، طالما كان يحلّق.

24

كانت ريتسوكو، عاملة النظافة في مصنعٍ للبلاط، هي التي التقطَت الغراب الصغير.

وكانت قد عُيِّنَت هنا من قبل وكالة للتوظيف المؤقّت بعقدٍ لمدّة عامٍ واحدٍ.

لها من العمر أربعون عاماً، ولديها طفلٌ في المدرسة الابتدائية.

في ذلك اليوم، مرتدية كمامة واقية، كنّست الغبار من على خطوط الإنتاج قبل تشغيلها. بعد منتصف الظهيرة بقليل، نظّفت المراحيض. مراحيض الرجال ومراحيض النساء، في المكاتب. ومن ثمّ المراحيض الخمسة المختلطة، في المصنع. إجمالاً، سبعة مراحيضٍ جالت عليها واحداً تلو الآخر وهي تدفع عربتها الصغيرة المليئة بمواد التنظيف.

وإذا كانت لم تأخذ استراحةً على الغداء، فذلك لكي تنتهي من أعمال التنظيف في الوقت المناسب. بدءاً من الساعة السادسة مساءً، كانت تعمل إضافياً في حانةٍ لغناء الكاريوكي في الحي. بين الدوامَين، كان عليها أن تعود إلى بيتها لكي تعدّ العشاء لابنها، وتضع مكياجها، ثمّ تخرج إلى الحانة. إذا لم تغادر المصنع بعد الساعة الثالثة عصراً بقليل، فلن تتوفّر على الوقت الكافي للقيام بكلّ شيء.

ولكن بينما كانت ترتّب عربتها، بعد أن نظّفت المراحيض، طلب منها موظّفٌ في المكتب أن تنظفَ في مكانٍ آخر. كان عشّ غرابٍ قد سقط على مشاتل الزهور، على ما يبدو. أرادَ أن تتولّى أمره قبل الانصراف.

يا له من حظٍّ عاثر، قالت في نفسها، وهي تتوجّه بخطواتٍ صغيرة نحو المكان المقصود، وتحت ذراعها سطلٌ. كان عاملٌ تعرفهُ بالشكل يعود من المكان نفسه. قال لها بنبرةٍ حازمة ومليئة بالشفقة في آنٍ واحد: «إنّه بحجمٍ كبيرٍ، لن يسعه سطلكِ».

لمّا وصلَت إلى أسفل شجرة أرز الهيمالايا، أدركت ريتسوكو ما كان يقصده. كان العشّ الذي سقط كبيراً جدّاً بحيث لا يمكن الإمساك به باليدين فقط. ولن يُفيدها سطلها في شيء.

كانت تعلم بوجود عشّ الغراب هذا في قمّة شجرة الأرز. فقد سبق وأصبح موضوع نزاع صغير في المكاتب، وألقت هي بنفسها نظرة عليه.

مع العاصفة، قبل ذلك ببضعة أيام، كانت شجرة الأرز قد فقدت جزءاً كبيراً من إبَرها. وبذلك ظهرت بين الأغصان العارية كتلةٌ مستديرة، تبيّنَ بوضوح أنّها عبارة عن عشّ.

آنذاك، أراد أحد موظفي المكتب أن يتّصل بالبلدية لتأتي وتُزيله.

كانت الغربان تُعتَبَر في هذه المدينة طيوراً ضارّة. كلّ سنة، كانت البلدية تخصّص ميزانيةً لمكافحة هذه الطيور، وتبيد أكبر عدد ممكن منها في حدود إمكاناتها. كانت الأعشاش أيضاً مُستهدَفة لأنّ الغربان لم تكن تبنيها سوى لتتكاثر فيها. ولذلك، شكّل تدمير الأعشاش وقتل الفراخ فيها الخطوة الأولى نحو إبادتها. وكان عددٌ كبير من السكّان يؤيّدون هذه السياسة في مكافحة الطيور.

وبالتالي، كان العديد من الموظّفين، بصفتهم مدراء لموقع المصنع، قد أكّدوا أنّ من واجبهم إخبار البلدية عن عشّ الغربان.

كان بعضهم يعارض ذلك: هل من الضروري القضاء عمداً على كائنات حية تربّي صغارها؟ كان العديد منهم يفكّرون بهذه الطريقة، ولم يكن في نيّتهم أن يستسلموا.

في نهاية المطاف، حسمَ رئيس القسم الأمر بطريقته، أي بعدم اتّخاذ أي قرار. وبقيَ عشّ الغربان سليماً.

وها هي ريتسوكو، وسطلها تحت ذراعها، تكتشفه محطّماً.

أمام العشّ المبني من تشابكٍ هائلٍ من علّاقات الثياب، والخيطان البلاستيكية والأغصان الرفيعة بأشكالٍ متنوّعة، شعرت ريتسوكو بالانبهار بذكاء وصبر هذه الطيور.

في حين كان عليها أن تتصرّف دون تأخير، تحت طائلة أن تصل متأخّرة إلى البيت، لم تستطع أن تشيح ببصرها عنه. بدا لها أنّ الحبّ الذي نقلت به الغربان كلّ علّاقة، وكلّ غُصينٍ، يتجسّد في هذا البنيان.

وحينما رفعت العشّ لتضعه في العربة ذات الذراعَين، والتي أحضرتها من المخزن، لاحظَتْ وجود الفرخ.

كان محصوراً بين علّاقتَين متشابكتَين، مغطّى بالدم.

كان جلد رأسه الممزّق يجعل اللَّحم ظاهراً. ربما يكون قد جُرِحَ أثناء سقوطه.

حينما أدخلت إصبعها المدسوسة في القفاز إلى الفجوة، خفق الجناحان الصغيران مرّات عديدة.

كسرت العلّاقتَين لكي تفتح فسحةً ولامسَت بلطف الفرخَ. داعبت أصابعها رقبته. نقرها نقرة خفيفة. لم يكن ذلك مؤلماً. حابسة أنفاسها، مرّرت يدها تحت جسمه. وبكلّ لطف، أخرجته من العشّ.

25

بعد أن حشرَت العشّ في حاوية الأشياء الضخمة، أخرجَت ريتسوكو من حقيبتها كيساً ورقياً صغيراً. كان الكيس يحتوي على الشطيرة التي اشترتها من مقهى المصنع، والتي كانت تنوي أن تتناولها إذا ما أُتيح لها الوقت.

أخرجتها من الكيس الورقي، الذي وضعت فيه الفرخ. وبعدها، ومن دون أن تمرّ على المكاتب، سارت وفي كلّ يدٍ من يديها كيسٌ.

ما أن تمرّ أرصفة التحميل التي تصطفّ بجانبها الشاحنات والعربات الرافعة، يلمح المرء مشاتل الزهور. قالت في نفسها،

وهي تجول ببصرها على الأنحاء، إنّه ربّما تكون الغراب الأمّ موجودة هنا.

ولكنها لم تعثر على أثرٍ لطير.

بعد أن دُمّر عشهما، واختفى صغارهما، ألا يكون الوالدان قد جنّ جنونهما؟ كان يُقال إنّ الغربان تهاجم البشر لكي تحمي عشّها. وكان هذا أحد الأسباب التي تجعلها ضارّة، حسبما سمعت.

لو أنّ أنثى الغراب رأتها تأخذ الفرخ، لكان هناك خطر أن تهاجمها. خافَت من ذلك قليلاً. ولكن كلا، لو كانت الأمّ هنا، ألم يكن من الأفضل لو أنّها وضعت الفرخ بهدوء إلى جانبها؟

ومع ذلك، لم ترَ غراباً في أيّ مكان، لا على شجرة أرز الهيمالايا، ولا على الأسلاك الكهربائية التي تمتدّ على طول سور المصنع. كان الحلّ الوحيد أن تنقل الفرخ في كيسها الورقي. سوف يفرح ابنها يويتشي بذلك.

لكنّ ريتسوكو لم تكن تعلم كلّ شيء.

لم تكن تعلم أنّه إذا كانت الغربان، اليقِظة على الدوام، تسعى إلى ترهيب البشر، فذلك قبل أن يتمّ تحديد مكان أعشاشها. وما أن يمسّ كائنٌ بشري أعشاشها، تستسلم الغالبية منها. لا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى مشاهدة تدمير أعشاشها واختفاء صغارها، وهي تنعق بيأس، أو تلتزم الصمت وتجمد كما لو أنّها مشلولة.

كانت ريتسوكو تجهل أمراً آخر أيضاً.

إنّ فراخ الغربان تغادرُ العشّ قبل أن تجيد الطيران.

وهي عبارة عن حفلة وداعٍ بين الوالدَين وصغارهما.

يغادر الطير الصغير العشّ، خافقاً بجناحَيه بطيشٍ ومرفرفاً، وهي محاولة تتخلّلها حوادث سقوطٍ وانزلاقٍ. تراقبه أمّه من مكانٍ خفي.

وهذه النظرة التي تلقيها من بعيد هي واجبها الأخير.

ثمّ، لا تعود لأيّ منهما علاقة بالآخر.

وهذا ما كانت قد فعلته أمّ جونسون.

خلف ريتسوكو، كانت المثلّثات الحمراء للأسطح تعلوها المداخن. وكانت الغراب الأمّ جاثمة بينها.

دون نعيقٍ واحدٍ، ودون حركة واحدة، ظلّت تراقب ريتسوكو.

لقد رأت أنّ جونسون قد وضِع في كيسٍ ورقي وحُمِلَ إلى مكانٍ بعيد.

لا بدَّ أنّها اضطرّت أن تستجمع كلّ قواها لكي تكتفي بالنظر إليه.

لم تكن قادرة على أن تشيح ببصرها.

لأنّ الوقت كان لا يزال مبكّراً جداً لكي يغادر فرخها الوحيد الناجي العشّ.

26

بعد أن ابتعدت قليلاً عن المصنع، أوقفت ريتسوكو دراجتها الهوائية.

يوجد سلّة مثبّتة على مقودها.

يستقرّ الكيس الورقي الذي يضمّ فرخ الغراب داخل هذه السلّة بعناية.

فتحَته بحرص وألقت نظرة على ما في داخله.

كان مزيجٌ من الفضلات والدم يلوّث جدرانه. وكان الفرخ متّسخاً بالكامل. جعلها المشهد تعبس رغماً عنها. لكنّ الفرخ نظر إليها، ومنقاره مفتوحٌ.

أعادت إغلاق الكيس بزمّ فتحته، ونظرت إلى ساعة يدها.

كانت تعلم أنْ ليس لديها متّسعٌ من الوقت، ولكنها مع ذلك غيّرت اتجاهها. فقد تذكّرت أنّ هناك متجراً للطيور في مدخل سوق المدينة.

27

هناك، اعترفت بأنّها قد التقطت فرخ غرابٍ.

ساد عبوسٌ وجهَ صاحب المتجر المسنّ، وهو يعتني بطيور الكناري. قال صاحب المتجر:

- ليس لنا الحقّ أن نصطاد أو نقتني طيوراً بريّة من دون إذنٍ خاص. لا ينبغي أن نتدخّل في شؤون الطبيعة.

صلب الرجل ذراعَيه، وأردف:

- وعلاوة على ذلك، هذا غرابٌ، أي من الطيور التي تتمّ إبادتها. وبما أنّه طيرٌ ضارّ، ينبغي إخبار الدوائر البلدية بالأمر. لقد أوقعتِ نفسكِ في ورطة كبيرة.

سألت ريتسوكو:

- إذا ما أخبرنا البلدية، هل سيتمّ إطلاقه بعيداً من هنا، في الجبل مثلاً؟

أطلق صاحب المتجر تمتمةً متذمّرة، وهزّ رأسه:

- إنّهم ينصبون لها فخاخاً لهلاكها، وبالتالي، بالتأكيد كلا. سوف يقتلونه بلا شكّ.

- يقتلونه؟ ولكن كيف؟

ظلّ الرجل صامتاً، مكتفياً بهزّ رأسه في عبوسٍ.

28

غادرت ريتسوكو متجر الطيور دون أن تنطق بكلمة واحدة وعرّجت على السوق.

أخذت وجبة جاهزة وبعض الأطباق المحضّرة للعشاء، والتي دفعت ثمنها في صندوق المحاسبة. وكانت قد دسّت في حقيبتها المصنوعة من الفينيل الأسود علبة من اللحم، لم تدفع ثمنها.

ثمّ مرّت بعد ذلك على الصيدلية، حيث وضعت أمام صندوق المحاسبة عبوة مطهّر وقطّارة، دفعت ثمنهما. كما حشرت في حقيبتها علبةً صغيرةً من طعام الأطفال وضمادات جروحٍ، لم تدفع ثمنها.

29

فرِح يويتشي بالفعل.

صرخَ وهو يقفز فوق كرسيٍّ ليتّخذ وضعية المنتصر، رافعاً ذراعيه:

- واو! هذا رائع! هل يمكننا حقّاً أن نحتفظ به؟

قفزَ جانباً وهو في غاية الإثارة، فعلقت قدماه في حقيبته المدرسية وسقطَ على ردفيه. ظلّ يضحك.

قالت أمّه:

- لا يتعلّق الأمر بالاحتفاظ به. سوف نعتني به إلى أن يُشفى من جراحه. هذا كلّ ما في الأمر. حينما يصبح قادراً على الطيران، سوف نودّعه. سوف يستغرق هذا ربّما يومَين أو ثلاثة أيام، أو أسبوعاً، أو، من يدري، ربّما حتى عشرة أيام. ولكن ليس أكثر. لقد تجادلتُ مع تاجر الطيور، وقد قال لي إنّه لا ينبغي أن نتدخّل في شؤون الطبيعة. ثمّ إنه لا يُسمح لنا هنا بتربية الحيوانات، كما تعلم.

- آه حقّاً؟ هذا كلّ شيء؟

محبَطاً، بدا وجهه عابساً. لكنّ رؤية الفرخ في الكيس الورقي أعادت إليه الابتسامة. كان يتحرّك. أين سنضعه، وماذا سنقدّم له طعاماً؟

كان يويتشي في الحادية عشرة من عمره، في الصفّ الخامس الابتدائي، وهو أقصر من زملائه في الصفّ بقليل. كانت أمّه تحلق شعره بآلة الحلاقة بداية كلّ شهر، وهي الفترة التي يشبه فيها الصبي الذي يقدّم دعاية ماركة مشهورة من عجينة الميسو. كانت له هيئة صبيٍّ ريفيٍّ من الماضي.

ولكنّه لم يكن في الحقيقة ملاكاً. ربّما بسبب غطرسته، كان زملاؤه والتلاميذ الأكبر سنّاً منه يرغبون في التشاجر معه. وفي كلّ مرّة، كانت المشاجرة تتحوّل إلى عراكٍ. ولم يكن يتوقّف أبداً قبل أن يُدمي خصمه. فتذهب ريتسوكو باستمرار لكي تقدِّم اعتذارها لوالدَي

الطفل. وتذهب أيضاً إلى المدرسة، وتعتذر للمعلّم. ويقول لها المعلّم، وهو رجلٌ أكبر سنّاً منها بقليل، مع ابتسامة صفراء: «لا بدَّ أنّ يويتشي متوتّرٌ بعض الشيء، أليس كذلك؟».

كان وجه ريتسوكو يتحوّل حينئذ إلى قناع امرأة مليئة بالهموم. وحينما تعود إلى شقّتهما في تلك العمارة القديمة في المجمّع السكني التابع للبلدية، تظلّ ملامح وجهها جامدة. بل حدث لها أن ألقت على يويتشي زوج حذاء التنس المصفوفَين في مدخل الشقّة. وكان الصبي، من جهته، والذي يعلم تماماً أنّ والدته قد ذهبت لتعتذر، يصل إلى حافة الانهيار العصبي. تمتلئ عيناه بالدموع، وهو يضرب بقبضته على الطاولة، ويصرخ: «إنّ الطفل الآخر هو الذي بدأ، لماذا قدّمتِ الاعتذار؟».

كانت اللحظات الوحيدة التي يبتهج يويتشي فيها، هي عندما يلعب مع كلبٍ أو قطٍّ.

كم مرّة تمنّت لو أنّها تستطيع الإقامة في عمارةٍ يكون اقتناء الحيوانات فيها مسموحاً؟

ولكن براتبها وحده، كان هذا مستحيلاً. عدا حلاقة الشعر الشهرية، كان من المستحيل بالنسبة إليها أن تفعل أيّ شيءٍ آخر.

– اسمعني جيّداً، يا يويتشي، لا ينبغي أن تقول في المدرسة إننا نحتفظ بفرخ غرابٍ في البيت.

– ولكن لماذا؟

– لأنّه لو كُشِف هذا الأمر، سوف تواجهنا مشاكل. فالغراب ليس طيراً يُربّيه الناس في منازلهم.

– حتى لو كان منزلنا عبارة عن سرداقٍ؟

– حتى لو كان بيتنا مزرعةً أو قصراً؛ من الممنوع تربية غرابٍ.

– من قرّرَ هذا الأمر؟

تملّصت من الإجابة من خلال النظر إلى ساعة يدها، واكتفت بالقول:

– سؤالٌ وجيه.

ثمّ أطلقت صرخةً صغيرة، وأسرعت لكي تجلس أمام طاولة زينتها.

30

كانت وجبة سريعة من أصابع السمك المقلي وعلبة من سلطة الذرة موضوعة على الطاولة.

لم يلمس يويتشي شيئاً منها، لأنّه كان مشغولاً بإعداد قفصٍ كرتوني. فتح فيه باستخدام شفرة قاطعة شقوقاً بعرض سنتيمترٍ تقريباً.

كان قد درس مؤخّراً في المدرسة العلاقة بين الأكسجين وثاني أكسيد الكربون. إنّ الهواء الذي تزفره الكائنات الحيّة يحتوي على غاز ثاني أكسيد الكربون. وإذا لم يفتح فتحاتٍ في الصندوق، سوف يتجمّع فيه غاز ثاني أكسيد الكربون. وسوف يموت فرخ الغراب اختناقاً.

31

وفي غضون ساعة واحدة، أعدَّ قفصاً كرتونياً، قام بفرشه بورق الجرائد. ومن ثمّ، بعد نقاشٍ داخليٍّ طويل -هل سيمتلك شجاعة فعل ذلك؟- وبحذرٍ كبير، مدّ يده نحو فرخ الغراب. وبعد أن تعرّضَ لوابلٍ من النقرات، نجح في غسله في الحمّام. وقد خلّصه من الفضلات والدماء المتخثّرة على ريشه.

كان الطير قد أُصيبَ بجروحٍ في طرف جناحه الأيمن، وفي رأسه.

ملتزماً بالتعليمات التي تركتها أمّه، غمّس يويتشي قطعة من القطن في المادة المطهّرة، ومرّرها على جناح الفرخ ورأسه. أخذ فرخ الغراب فجأةً يتشنّج، الأمر الذي أخافه بعض الشيء، ولكن بعد مضي برهةٍ من الوقت، عادَ وحرّك جناحَيه بعنف.

متغلباً على ضربات المنقار، استأنف يويتشي معالجته؛ ثبّت جناحَيه بيده اليسرى، لكي يحاول أن يضع، بيده اليمنى، القطارة في منقاره. أراد أن يُسقيه ماءً.

لم يكن الأمر سهلاً أبداً. كان الطير يرفضُ فتح حلقه.

حينما وضعَ طرف القطارة على منقار الفرخ، ابتعد الفكّان عن بعضهما للحظة، ولكن في الوقت ذاته، دارت عينا الفرخ في محجرَيهما. خشيةً من أن يراه يتشنّج مرّة أخرى، لم يجرؤ على الإلحاح عليه. سال الماء دون أن يدخل إلى حلقه.

أمّا بالنسبة إلى الغذاء، فمن الأفضل عدم الحديث عنه.

حطَّ في الصندوق طبقاً كان قد وضع فيه قطعة اللحم التي جلبتها أمّه. ولكنّ الطير قلب كلّ شيء برجليه. ردّد له من دون جدوى: «هذا طعامٌ!». بالطبع، لم يكن الغراب يفهم شيئاً.

نجح يويتشي فقط في لصق ضمادةٍ على رأسه. لا بدَّ أنّ الإحساس بالضمادة قد أزعجه، لأنّه هزّ رأسه قبل أن يستسلم أخيراً عن محاولة التخلُّص منها والتكوّم على نفسه في زاويةٍ من الصندوق الكرتوني.

32

عندما عادت ريتسوكو من عملها في حانة الكاريوكي، كان يويتشي نائماً، وقد وضع فراشه بجانب الصندوق الكرتوني.

فاحت الغرفة برائحة مختلفة تماماً عمّا كانت عليه من قبل.

فتحَ الصبي عينَيه جزئياً وتمنّى لها ليلة سعيدة.

في صندوقه، تحرّكَ الغراب الصغير مصدراً حفيفاً بجناحيه.

33

لم يكن فرخ الغراب مع الضمادة التي على رأسه قد أكل شيئاً منذ يومَين. كانا قد نجحا، ليس من دون مشقّة، في جعله يشرب بعض الماء من خلال دسّ القطّارة بين فكّي منقاره، ولكنّه أصرّ على لفظ قطع اللحم.

اقترحت ريتسوكو عبثاً:

- لن ننجح في ذلك؛ ماذا لو أعدناه إلى المكان الذي جاء منه؟

ولكنّ يويتشي رفض ذلك.

- لقد قلتِ إننا سوف نُطلقه عندما يصبح قادراً على الطيران.

ردّ عليها دون أن ينظر إليها.

بعد العودة من المدرسة، كان يقضي وقته بالاعتناء بالغراب. حينما تعود من المصنع، تراه وقد غطّ رأسه في الصندوق الكرتوني، تاركاً حقيبته المدرسية في ممرّ الشقّة.

- نعم. هذا ما كنتُ قد وعدتُكَ به.

- لم أتحدّث عنه في المدرسة. لم أقل أيّ شيءٍ لأحدٍ.

- هذا جيّد.

كان ظهر يويتشي الهزيل يُتيح تقدير حزمه. فراودت ريتسوكو فكرة عفوية.

- حتى لو لن نحتفظ به لوقتٍ طويل، من الأفضل أن نُطلقَ عليه اسماً.

استدار يويتشي.

ضحكَ ملء شدقَيه.

- هل تعتقدين أنني لم أفعل ذلك حتى الآن؟

- ماذا، هل سبق ووجدت له اسماً؟

أقرّ يويتشي وهو يشير بإصبعه إلى علبة الضمادات.

- إنّ علبة الضمادات هي التي ألهمتني الفكرة.

- كيف ذلك؟

- اسمه جونسون. لا شكّ أنّ هذه رسالة مشفّرة من صانع

الضمادات: إنّ هذا الاسم مكتوبٌ في كلّ مكان، ولا بدَّ أن يكون هذا مهمّاً. ثمّ إنّ لهذا الاسم وقعٌ جميل.

راحت ريتسوكو تضحك، مندهشةً.

- لقد سمّيتَه جونسون؟ وكأنه غرابٌ من بلدٍ أجنبي.

- إنّ اسم جونسون يعجبني.

سحب يويتشي قلم تخطيطٍ من حقيبته المدرسية، ووضع علبة الضمادات أمامه. ثمّ، كتب على الصندوق الكرتوني، في مساحة شاغرة، بخطٍّ كبير: جونسون.

34

في صباح اليوم الثالث، أكلَ جونسون من كفتة السمك المقلية والمقطّعة قطعاً صغيرة.

حينما قرّب يويتشي قطعةً من منقاره، التقطها بحركةٍ سلسة وابتلعها، دافعاً رأسه إلى الخلف.

أطلق الصبي صيحةَ فرحٍ ووثب على كرسيٍّ حيث رقص رقصة مضحكة.

كان يوم السبت؛ ولم يكن لديه دوامٌ في المدرسة. اعتنى بجونسون طوال النهار. ريتسوكو كذلك لم تكن تعمل في المصنع يوم السبت. واستطاعت أن تبقى مع ابنها حتى لحظة ذهابها إلى حانة الكاريوكي في نهاية ما بعد الظهيرة.

الآن وقد بدأ يأكل كفتة السمك المقلية، صارَ جونسون يتحسّن ويستعيد نشاطه بسرعة.

كان يخبط بقوّة كبيرة بجناحَيه داخل الصندوق الكرتوني لكي يخرجه يويتشي منه؛ ويجري في كلّ مكانٍ من الغرفة، مثل دمية أطفال، وهو يخلّف الذَّرْق هنا وهناك. وكان ذلك يُغضب ريتسوكو كثيراً. وقد انتهى بهما الأمر بأن غطّيا أرضية الغرفة بأوراق الصحف القديمة، وتركاه يمشي عليها.

وأيضاً في ذلك اليوم نفسه، نعق جونسون للمرّة الأولى أمامهما.

أصدرَ في البداية فرقعةً ضعيفة، كما لو أنّ شيئاً ما كان قد علق في حلقه. ثمّ نعق نعيقاً أطول.

كان يويتشي أوّل من أحسّ بالقلق من الجوار.

- إذا ما سمع أحدهم صوته، سنكون أمام مشكلة.

- أنت على حقّ. لكن الأمور ستكون بخير، إذا لم ينعق بصوتٍ أقوى من صوته الحالي.

لم يكن المجمّع حديثاً، وكان معظم سكّانه من المسنّين. لم تكن هناك مشاكل كبيرة، لكن البعض كانوا لا يكفّون عن التذمّر مثلما قد تفعل حماة مشاكسة. فبعض المستأجرين الذين حاولوا أن يربّوا في منازلهم كلباً أو قطّاً بشكلٍ سرّي، شاهدوا موظفي البلدية يداهمون بيوتهم. كان من العبث أن يشعر المرء بأنّه يحافظ على السرّية، إذ عدا الهامستر، جميع الحيوانات تُصدرُ صوتاً.

- إذا ما اكتشف أحدهم الأمر، ما الذي سوف يحدث؟

أمسك يويتشي جونسون بين يدَيه اللتين رفعهما حتى مستوى صدره. ظلّ الفرخ واجماً.

- سيكون علينا أن نُطلقه.

- حتى إذا كان لا يجيد الطيران بعد؟

- نعم.

- فهمت.

قرّب يويتشي وجهه من رأس جونسون.

- جونسون، لا ينبغي أن تنعق بصوتٍ قوي. عليك بالسكوت، اتّفقنا؟

35

لم يذهب يويتشي للتبضُّع مع أمّه.

في يومَي السبت والأحد، اليومان الوحيدان اللذان يمكنهما الخروج فيهما معاً، وكانت تلك مناسبة بالنسبة إليه ليحصل على حبّة مانغا أو قطعة حلوى، كان يرافقها دائماً، ينطّ حول ريتسوكو فرِحاً مثل جروٍ.

ولكن في ذلك اليوم، لم يبتعد عن الصندوق الكرتوني.

- وماذا لو أنّ جونسون بدأ بالنعيق حينما يكون بمفرده في البيت؟

كان هذا ما يُقلقه.

- ولكنك لن تستطيع أن تبقى معه بشكلٍ دائم. ثمّ، ما الذي ستفعله بدءاً من يوم الاثنين؟ لديك دوامٌ في المدرسة. وأنا، عليّ أن أذهب إلى المصنع. سوف يكون جونسون لوحده خلال النهار.

- امم. ربّما لن أذهب إلى المدرسة.

- ماذا تقول؟ يا لك من غبي!

ولكنّه بدا جادّاً في كلامه.

ما العمل؟

يمكنهما أن يضعا غطاءً على الصندوق الكرتوني؛ ولكن هل سيكون هذا كافياً لكتم الأصوات؟

وهي تفكّر في الاحتمالات، كانت ريتسوكو تملأ سلّتها. أخذت نوعَين من كفتة السمك المقلية -**ساتسوما**-آغيه المسطّحة، **وتشيكوا** الأسطوانية- على أمل أن تنال إعجاب جونسون.

بالإضافة إلى سلّة المتجر، كانت تمسك في يدها حقيبتها المعتادة، مفتوحةً. لمرّات عديدة، وجدت نفسها في الزاوية الميّتة لمرايا المراقبة، بين الزبائن والرفوف.

ولكن في ذلك اليوم، لم تدسّ أيّ شيء خلسةً في حقيبتها.

36

عندما عادَت من الحانة، كان يويتشي لا يزال مستيقظاً.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ولكنّ عينَيه كانتا تتلألآن. وجدت أرضية الغرفة مفروشة بالكامل بورق الجرائد.

سألت وفي صوتها نبرة عتاب:

- ماذا تفعل في هذا الوقت المتأخّر؟

لم يرتبك يويتشي. من خلال الذَّرق الحديث الخروج، والذي كان متناثراً على أوراق الصحف، بدا واضحاً أنّه كان لا يزال يلعب مع جونسون حتى قبل عودتها ببضع دقائق. ومع ذلك، أخذه الطفل

بين يدَيه ووضعه أمامها. رفرف فرخ الغراب، وعلى رأسه الضمادة، بجناحَيه لعدّة مرّات وهو يُدير رأسه يساراً ويميناً.

- انظري، يا ماما!

وقف يويتشي أمام جونسون، واثقاً من نفسه. وكان الغراب ينظر إليه، فاتحاً منقاره. مستديراً حول نفسه، سار الصبي أمام الفرخ. ولأنّ مساحة الغرفة كانت ضيّقة، لم يستطع سوى أن يدور حول الطاولة.

- يا إلهي!

كان جونسون يسير في إثر يويتشي.

يتبعه بكلّ دقّة، وهو يقفز وينزلق، قريباً جدّاً منه بحيث يعرّض نفسه لخطر الدوس عليه. حينما يستدير يويتشي إلى اليسار، يستدير جونسون إلى اليسار، وحينما يستدير إلى الجهة الأخرى، يسارع جونسون إلى تقليده.

كانت ريتسوكو تعرفُ ظاهرة تتبّع الأثر عند الطيور، إذ كانت قد شاهدت برنامجاً عن ذلك في التلفاز. تتّخذ غالبية الطيور من أوّل كائن متحرّك أو غير متحرّك تتّصل معه عند ولادتها أمّاً لها. إذا ما أولاها كائنٌ بشري الرعاية قبل أمّها، تأخذ باللحاق به. وبدا لها أنّ ما تراه يحدث بين يويتشي وجونسون هو هذه الظاهرة بالضبط.

ولكنّها فكرّت مع ذلك بأنّ هذه الحالة غريبة.

لأنّ هذا الغراب الصغير كان قد كَبُر في عشٍّ مبنيٍّ بعزم، تقريباً حتى لحظة القدرة على الطيران. لم يكن بحاجة إلى أمٍّ بديلة: كانت لديه أمّه الحقيقية. لم يكن هناك سبب في أن يرى في يويتشي أماً بديلةً.

إذاً، ما الذي كان يحدث؟ إذا لم يكن يويتشي أمّاً بالنسبة إليه، فهل كان... أخاً كبيراً؟

صاحت وهي تضحك:

- يويتشي، ها قد أصبح لديك أخٌ صغير! هذا رائع.

بدا ابنها فخوراً جدّاً بنفسه.

- وكأنك الدكتور دوليتل.

- ومن يكون هذا؟

- إنّه شخصٌ يُجيد التحدّث إلى الكثير من الحيوانات. كان بطلي المفضّل، حينما كنتُ صغيرةً.

بدا يويتشي متفاجئاً.

- أنتِ أيضاً، تحبّين الحيوانات؟

- نعم.

- حقّاً؟ كنتُ أعتقد أنّكِ لا تحبينها.

- لو لم يكن كذلك، لما جلبتُ فرخ غرابٍ.

غمغم الطفل:

- هذا صحيح.

ثمّ استدار نحو جونسون وخبط بقدمه بقوّة على الأرض. فاهتزّت الأرضية.

دقّ الجار الذي يقيم أسفل شقّتهما بقوّة مماثلة على السقف.

كان الزوجان المسنّان اللذان يقيمان في الطابق الأسفل يفعلان ذلك للتشكّي من الضجيج.

تجمّد يويتشي في مكانه، واضعاً إحدى يدَيه على فمه. وكانت

ريتسوكو، بينما ترفع سبابتها أمام شفتَيها، هي الأخرى متجمّدة في مكانها مثل وتدٍ.

- علينا أن ننتبه جيّداً.

- نعم.

عند قدمَيه، زعق جونسون. أسرع يويتشي في أخذه بين يدَيه لكي يُعيده إلى قفصه الكرتوني.

37

كان يويتشي نائماً.

لديه نفس عيناها وأنفها.

بينما يشبه فمه ووجهه البيضوي فم ووجه زوجها السابق.

لم تكن قد أطفأت الضوء بعد، ولكنّ الصبي كان قد نام. ولا بدّ أنّ جونسون أيضاً قد نال منه التعب، لأنّ الهدوء كان يخيّم على الصندوق الكرتوني.

وهي تتأمّل ابنها النائم، فاغر الفم، لم تستطع أن تمتنع عن أن تقول في نفسها: «وكأنّك تشبهني».

إذا كانت لم تقتنِ حيواناً أليفاً بعد زواجها، فذلك لأنّ زوجها السابق كان يكره الحيوانات. لم تكن لا الكلاب ولا القطط مرغوبة لديه. وبالنتيجة، فإنّ هذا النوع من التفاصيل هي التي جعلت زواجهما لا يستمرّ.

بعد الطلاق، أصبح وضعها أكثر من هشٍّ. فالنفقة التي كان من المفترض أن تُرسَل كلّ شهرٍ إلى ريتسوكو سرعان ما توقّفت عن

الوصول. منذ أن انتقلا، يويتشي وهي، للعيش في هذا المجمّع السكني التابع للبلدية، ذي الإيجار المنخفض، لم تعد قادرة على اقتناء حيوانٍ. وكان يويتشي يحجم عن طرح الموضوع، بدافع اللطف. لكنّ ردّ فعله، عندما كانا يُصادفان كلباً يتنزّه أو قطّاً على قارعة الطريق، لم يكن يدع مجالاً للشكّ.

كان يحبّ الحيوانات.

مثلها هي التي أنقذت فرخَ غرابٍ مشارفٍ على الموت، وهي تقول لنفسها إنّه لا ينبغي الاحتفاظ به. لقد كان بالفعل ابن أمّه.

«أنت تشبهني فعلاً».

سحبت ريتسوكو الخيط المدلّى من المصباح.

حلّ الظلام.

في الصندوق الكرتوني، سجع جونسون بصوتٍ خافت.

38

يوم الأحد.

كان يويتشي يقضي وقته في ملاحقة جونسون أو بالعكس. بالتأكيد كانت لديه وظائف ينبغي إنجازها، ولكن لم يكن يبدو أنّه مستعدٌّ لفتح حقيبته المدرسية.

وصلَت عبارات التوبيخ إلى شفتَي ريتسوكو، لكنّها ظلّت ساكتة.

لم يكن الجرح الذي أصاب رأس جونسون قاتلاً، وقد بدأ

يستعيد قواه. وإذا استمرّ على هذا المنوال، سوف يكون بوسعهما أن يُعيدا إليه حرّيته قريباً. وسوف يكون ذلك اليوم نهاية الصداقة بينه وبين يويتشي.

وفكّرت في نفسها بأنّها هي من جلبته؛ وبالتالي، من الأفضل تركه يتصرّف كما يشاء.

39

بعد منتصف الظهيرة بقليل.

طارَ جونسون.

رفرف بجناحَيه لكي يحطّ على كرسيٍّ.

طار بشكلٍ منحرف، ربّما بسبب الجرح الذي في جناحه.

مائلاً إلى أحد جنبَيه، تهاوى على الكرسي، كما لو أنّه فقدَ سرعته. ولكنّه مع ذلك كان قد طار.

- لقد طار، يا ماما، انظري!

- لقد رأيته!

تعالت منهما صيحات فرحٍ. وفي الحال، رفعت ريتسوكو إصبعاً أمام شفتَيها وأشارت بالسكوت. أدّى يويتشي، الذي على ما يبدو لم يستطع كبح حماسته، رقصةً، وعلى شفتَيه ابتسامةٌ عريضة.

- لقد طار، لقد طار، لقد طار!

فجأةً، استعاد جدّيته.

- ولكن، هذا يعني أننا سوف نفترق عمّا قريب.

- لا يزال الوقت مبكّراً. حتى يجيد الطيران تماماً.

- هذا صحيح! سوف ننتظر إلى أن تجيدَ الطيران تماماً، أليس كذلك؟

بالكاد انتهى يويتشي من كلامه حتى استأنف جونسون الطيران.

كان يميلُ بالفعل جانباً. ارتفعَ وهو يرسمُ قوساً، قبل أن يهوي فجأةً مثل حجرٍ.

- ربّما سيستغرق هذا بعض الوقت.

لم تكن تقنيته في الطيران آمنة. ولكن يويتشي أجاب على الفور:

- سيكون أفضل إذا ما استغرق وقتاً.

40

في المساء، حينما عادت ريتسوكو من حانة الكاريوكي، كان يويتشي لا يزال ساهراً، والشقّة غارقة في الظلام.

ما أن أشعلت الضوء، أمرها بأن تُطفئه. وهو يمسك بيده المصباح اليدوي، سار في إثرها، بادي الانزعاج.

قال إنّ جونسون قد نعقَ بشكلٍ صحيح للمرّة الأولى.

كان قد أطلق صيحتَين أو ثلاث، وهي بلا ريب صيحات غرابٍ.

كان شرشفٌ يغطّي القفص الكرتوني، وفوقه وسادة.

- حينما يحلّ الظلام، ينام. ويظلّ هادئاً في قفَصه.

- ولكننا لا نستطيع أن نعيش في العتمةِ!

- حسناً، إذاً سنقول إنّنا نستطيع أن نُشعِل الضوء الخافت، وسوف نحرص على ألا نوقظه. لا تُثيري ضجيجاً، يا ماما، اتّفقنا؟

قالت ريتسوكو في نفسها وهي تُطيع ابنها: إنّه العالم معكوساً.

سألت بصوتٍ خفيضٍ:

- أيّ نوعٍ من الصرخات كان؟

- كان نعيقاً.

- هذا مؤكّد، طالما أنّه غراب. هل تعتقد أن الساكنين في الطابق الأسفل سمعوا صوته؟

- لا أدري. في كلّ الأحوال، لم يطرقوا على السقف كالعادة.

مدّا الفراش وهما يسيران على أطراف أصابع أقدامهما. حينما يتكلّم المرء همساً، يبدأ بالسير أيضاً على أطراف أصابعه.

ما أن أصبحت في السرير، روَت ريتسوكو ليويتشي ما عرفته في اليوم نفسه. في الضوء الشحيح الذي يوفّره المصباح الليلي، تفحّصت وجهه. كانت عيناه فقط تبرزان من تحت الغطاء.

- يويتشي، لقد سمعتُ اليوم شيئاً مهمّاً في الحانة.

- ما هو؟

- حسناً، يبدو أنّ الغربان ذكيّة جدّاً.

- هل تحدّثتِ عن الأمر؟ هل قلتِ إننا نُخفي في بيتنا غراباً؟

برز وجه الصبي من تحت الغطاء الذي دفعه.

- كلا، لم أقل شيئاً. كان عندنا زبونٌ خبيرٌ بالطيور؛ وقد قال إنّ الببغاوات الكبيرة تستطيع أن تعيش حتى ثمانين عاماً، الأمر الذي أثار دهشتي. حسب ما قال، كلّ الطيور تعمّر طويلاً. وقال إنّ الحمائم تعمّر حتى ستين عاماً.

- يا إلهي، تقريباً بنفس عمر البشر.

- ولذلك، سألته عمّا يعرفه عن الغربان.

- وماذا قال؟

- تعيش عشرين عاماً.

صاح يويتشي، محبطاً:

- فقط ثُلث عمر الحمائم!

ثمّ، أخرج يدَيه من تحت الغطاء لكي يعدّ على أصابعه.

- إذا ما عاش جونسون عمراً طويلاً كهذا، سيكون عمري ثلاثين سنة حينما يموت.

- وأنا، سيكون عمري حوالي ستين سنة. إنّ أعمار الغربان طويلة. القطط والكلاب نادراً ما تعيش عشرين عاماً. آه نعم، إذاً، ما تعلمته أيضاً من أمورٍ هامّة...

- ما هي؟

- يبدو أنّ الغربان تمتلك ذاكرةً ممتازة. إنّها لا تنسى وجوه الذين أساؤوا إليها.

- حقّاً؟ إذاً من الأفضل عدم إزعاجها.

- وفراخ الغربان الذين تتمّ تربيتهم من قبل البشر يتعلّمون التكلُّم.

- ماذا؟

انتصبَ يويتشي فجأة.

- هذا ليس صحيحاً، يا ماما؟

- لا أعرف عن الموضوع أكثر منك. يبدو أن فرخ غرابٍ يعيش مع البشر يستطيع أن يقول بعض الكلمات البسيطة من قبيل «صباح الخير» و«إلى اللقاء». فكّر قليلاً في الأمر، فالببغاوات وطيور المينا

تستطيع أن تفعل ذلك جيّداً، فلماذا لا تستطيع الغربان ذلك؟ طالما أنّها الأكثر ذكاءً من كلّ الطيور.

- هي الأكثر ذكاءً؟

- حسب ما قال الزبون، نعم. في دماغها تلافيفٌ أكثر من دماغ الكلاب أو القطط. بين بعضها، تستخدم الغربان قرابة عشرين كلمة.

بدا يويتشي في غاية الانفعال. قال بصوتٍ مخنوقٍ، ولكن حاسمٍ:

- لقد اتّخذتُ قراري.

- أخبرني، أتحاول على أيّ حالٍ أن تعلّمه الكلام؟

- ألن أستطيع؟

- سيكون علينا قريباً أن نودّعه. وعلاوةً على ذلك، لقد بدأ ينعق.

ترك يويتشي نفسه يسقط متثاقلاً على فراشه، محدثاً صوتاً خافتاً. أطلق تنهيدة عميقة.

- أردتُ أن أعلّمه كيف يعرّف عن نفسه، ويقول اسمه.

ومن ثمّ، واصل التمتمة «اسمي جونسون» «اسمي يويتشي». لم يبدُ عليه أنّه مستعدٌّ لأن ينام.

41

حلَّ يوم الاثنين الحاسم.

شكّلَ ترك جونسون وحيداً في المنزل خلال النهار مصدراً للقلق.

إذا ما نعق بصوتٍ قويّ، سوف يسمعه بكلّ تأكيد الزوجان المسنّان في الطابق الأسفل والجيران الآخرون.

سوف تكون هناك شكاوى، ولكن الأنكى هو أنّه سوف يكون من المستحيل أن يستمرّا في الاعتناء به.

في الصباح، كان بشكلٍ عامّ يويتشي هو أوّل من يغادر، قبل ربع ساعة من موعد خروج ريتسوكو.

في الأيام العادية، كان ينزل السلّم بسرعة دون أن يلتفت إلى الوراء، وهو يقول فقط: «إلى اللقاء هذا المساء»، ولكن الآن، لم يكن قد قرّر المغادرة.

ماذا سيفعلان لو أن أصوات النعيق فضحَت وجود الغراب ودخل الحارس إلى منزلهما باستخدام مفتاحه الرئيس؟ كان يضع فرضيات، وأنفه في قفص الغراب.

أمرَ الطير الذي كان يلتقط قطعاً من التشيكوا:

- عليك أن تسكت، يا جونسون. عليك أن تمتنع عن النعيق.

ثمّ نزل السلَّم، وبدا واضحاً أنه يفعل ذلك على مضض.

42

في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، حينما عادت ريتسوكو من المصنع، كان يويتشي في المطبخ وهو يغسل عيدان الطعام وشوكته التي تناول بها طعام الغداء. كما أنّه قد وضع الغسيل في الغسّالة.

انتزعت رؤيته مشغولاً بهذه الطريقة ابتسامةً من أمّه، وداعبت شعره:

- هذا رائع! شكراً.

قد عُقِدَ اتّفاقٌ بين الأمّ والابن: كلّما أمكن ذلك، يقوم كلّ واحدٍ منهما بجلي أوانيه، وغسل ثيابه. ولكن حتى الآن، لم يكن يويتشي قد التزمَ بهذا الاتفاق إلّا نادراً. أمّا اليوم، فقد شرع بجلي الأواني من تلقاء نفسه. تساءلَت ريتسوكو إن كان قد نضج بعض الشيء. ربّما جعله وجودُ أحدٍ ما يحميه، حتى إن كان فرخ غرابٍ، يدرك بعض الأمور.

قال الصبي وهو يأخذ الغراب بين ذراعَيه:

- لم نتلقّ أي مكالمة هاتفية، وعلبة البريد فارغة. يبدو أن جونسون التزم الهدوء.

وضعه على أوراق الجرائد.

حينما استقرّ على رجلَيه جيّداً، قفز الطير قفزتَين وخفّق بجناحيه.

أدى تحرّك الهواء إلى أن تتراقص أوراق الجرائد.

كان يويتشي بالكاد قد مدّ يده حتى انطلقَ جونسون في الهواء. لا يزال يطير مائلاً إلى جنب، ولكنه تجاوز الطاولة لكي يحطّ بسرعة على الخزانة. سقطت مجسّمات الحشرات التي كان يويتشي قد صفّها عليها مثل قوارير لعبة البولينغ.

- هيه، انتبه!

- أوه، يا إلهي، إنّه يسير بشكلٍ منحرف، ولكنّه يطير!

في اللحظة نفسها، فتح جونسون منقاره.

قاااق!

لم يكن قد سبق له أبداً أن نعقَ بهذه القوّة. كما لو أنّه يُعلن لكلّ المجمّع بأنّ لديهم غراباً في مسكنهما.

قال يويتشي:

- تبّاً لهذا!

ثمّ هرع نحو الخزانة.

خفقَ جونسون بجناحَيه. ثمّ راح يحطّ على الطاولة، حيث أسقط ذَرْقاً أبيض اللون سائل القوام تماماً. أطلقت ريتسوكو صرخةً.

- تصرّف!

- اسكتْ، يا جونسون! يمكنك أن تتغوّط، ولكن اسكت!

صدمَ يويتشي وركه بزاوية الطاولة، ولكنه نجحَ في الإمساك بجونسون بعد عناء. نقرَ الطير يده، ثمّ أدار رأسه، في إشارةٍ إلى أنّه يعتبر أنّ كلّ شيء يسير على ما يرام.

- هكذا إذاً! إنّه يطير، ليس على نحوٍ مستقيم، لكنّه يستطيع ذلك.

وافقته ريتسوكو الرأي بإشارة من رأسها، وهي تمسح الذَّرْق بمنديلٍ ورقي.

اقترحت:

- ربّما يمكننا أن نعيد له حرّيته.

- لا يزال الوقت مبكّراً على هذا. حينما يُجيد الطيران على نحوٍ مستقيم تماماً، سوف نطلق سراحه من هنا.

- من هنا؟

- نعم. وبهذه الطريقة، إذا ما واجه مشكلةً، سوف يستطيع أن يعود إلى شرفتنا.

اقتربَ يويتشي من النافذة، وهو يُمسك جونسون بين ذراعَيه.

كانا يسكنان في الطابق الثالث والأخير. من الشرفة، كانت تُرى سلسلة من عمارات أخرى مثل عمارتهما.

- إذا ما انطلق من هنا، سوف يمكنه أن يعود في الليالي العاصفة، على سبيل المثال.

فكّرت ريتسوكو بأنّه يمتلك أفكاراً ناضجة جدّاً مقارنة مع عمره كتلميذ في المرحلة الابتدائية.

للأسف، كان لا بدَّ لها أن ترفض هذا الاقتراح.

- أنا أفهم ما تشعر به، يا يويتشي. ولكن هذا غير ممكن.

- لماذا؟

- لقد أخبرتني بأنّ علبة الرسائل فارغة، إلّا أنّني وجدت فيها استمارة المعلومات بشأن الحي.

بعد أن نظّفت الذَّرْق بعناية، أرته ريتسوكو الورقة المحفوظة في مصنّفٍ رمادي اللون.

- ما هذا؟

قالت له قبل أن تقرأ النصّ بشكلٍ سريع:

- انتظر، سوف أقرأها لك. هذه تأتي من جمعية السكّان. يقولون إنّه يتمّ فرز القمامة، ووضع شباكٍ على الحاويات، إلّا أن الغربان تأتي رغم ذلك وتنبش بين المخلّفات؛ ولذلك، تمّ اتّخاذ قرارٍ بنصب فخاخٍ.

سأل يويتشي مع تكشيرةٍ:

- هذا ليس صحيحاً، أليس كذلك؟

- ومن ثمّ... أوه، إنها فخاخ كالتي وضعتها البلدية في

الحدائق، من ضمن أماكن أخرى؛ وهي على شكل علبة يتمّ استدراج الغربان إليها من خلال وضع أغذية فيها. وإذا ما دخلت الغربان عبر فتحة العلبة، لا يعود بوسعها الخروج منها. وإذا ما حاولت العبور من خلال الفتحة، فإنّ الشفرات الحادّة المثبّتة تحتها... كلا، إنني أحلم!

- هل هذا معقول؟

كان يويتشي محبطاً، وحزيناً.

بعد قراءة النصّ، أحسّت ريتسوكو بمرارتها تصعد إلى حلقها.

وضعت المصنّف على الطاولة.

- هكذا هو الأمر، بصورة عامّة. ولذلك، من الأفضل أن نُطلقَ سراحه في مكانٍ بعيدٍ عن هنا، في جبلٍ على سبيل المثال. سوف نذهب يوم الأحد. سوف نستقلّ القطار.

- اتّفقنا.

لم يكن جواب يويتشي نابعاً عن قناعة.

ظلّ جونسون يُطقطقُ بمنقاره، بين ذراعَيه.

43

مرّ اليوم التالي، ومن ثمّ اليوم الذي تلاه، دون صعوبة تُذكَر.

عندما عادت ريتسوكو من المصنع، كان، طبعاً، يويتشي في المنزل، منشغلاً بجونسون.

سابقاً، كان يختفي دائماً مع زملائه، ملقياً حقيبته المدرسية في

المدخل، ولكن الآن يبدو أنّه يمتنع حتى عن الذهاب إلى اللعب في الخارج. كان يغسل كلّ يوم عيدان الطعام والشوكة التي استخدمها في كافيتيريا المدرسة، ويصفّها بترتيبٍ على الرفّ.

قالت ريتسوكو وهي تضعُ المساحيق على وجهها أمام طاولة الزينة:

- يويتشي، لقد تغيّرتَ منذ أصبح جونسون هنا. وكأنك قد كبُرتَ.

في المرآة، رأته يحني رأسه، محرجاً.

- كلا!

- بلى! وإذا بدأت بالاهتام بدروسك علاوة على ذلك، فسأكون سعيدة جدّاً.

- نعم، حسناً، سوف نرى.

كانت الحيرة بادية عليه، وبدأ بتفتيت **التشيكوا**. وضع قطع كفتة السمك المقلية في طبقٍ من الكرتون. كان هذا عشاء جونسون.

- يأكلُ كثيراً. أشعر أن شهيّته تزداد يوماً بعد يوم.

- إنّه مثلك، يجب أن يكبر. إنّه في عمرٍ يحتاج فيه إلى أن يتغذّى.

كانت ريتسوكو تنظر إليه، وهي تضع الكحل على عينَيها. يواصل تكديس قطع **التشيكوا** على الطبق.

- هل تعتقدين بأنّه كبُر منذ وصل إلى هنا؟ بما أنني أراه كلّ يوم، لا يمكنني أن ألاحظَ الفرق جيّداً.

- يبدو لي أنّه قد كبُر قليلاً. ثمّ إنّه لم يعد يحتفظ بالضمادة على رأسه.

لكثرة ما يصدم رأسه هنا وهناك في قفصه الكرتوني، لا بدّ أنّه قد حلّ ضمادته. قال لها يويتشي إنّه عندما عاد من المدرسة، وجده ملوّثاً بفضلاته. كان الجرح لا يزال ظاهراً، ولكنّه لم يكن ملتهباً. ولم تعد الضمادة ضرورية؛ وقد اطمئنّ الصبي على ذلك من قبل أمّه.

استأنفت الأم حديثها:

- هذا أمرٌ غريب، على أيّ حال. هل تعتقد بأنّه لا ينعق أبداً حينما لا نكون هنا؟

- ربّما لا.

- كيف تعرف ذلك؟

- لا أحد جاء ليشتكي.

في الواقع، كان هذا الدليل القاطع على صمت جونسون. كان بعض المستأجرين يغضبون ويصرخون بسبب حاويات القمامة أو ارتفاع صوت التلفاز. وكان الرجل الذي رشح نفسه رئيساً لجمعية السكّان صعب المراس للغاية. كان يكفي ترك النشرات الإعلانية تتراكم في صندوق الرسائل لكي يأتي ويطلب منك تنظيف المكان قبل أن يأتي أحدهم ويُشعل فيها النار. لو علم بأنّهما يمتلكان غراباً في منزلهما، كيف كان سيتصرّف؟

كان جونسون خارج قفصه، يلتقط **التشيكوا** بمنقاره. رأت ريتسوكو صورته المنعكسة في المرآة.

- ربما يعلم جونسون ذلك.

- يعلم ماذا؟

ممدّداً على بطنه بالقرب من الطير، كان يويتشي يراقبه وهو يأكل.

- يعلم أنّه إذا ما تمَّ كشف أمره، فلن يستطيع البقاء معنا.

- ربّما، نعم. لأنّه ذكيّ.

مركّزاً عينَيه على جونسون الذي يبتلع **التشيكوا**، مدّ يويتشي شفتَيه، وفتح وأطبق فكّيه.

قال وهو يرفع ذقنه إلى الأعلى:

- يمضغ مرّتين أو ثلاث، ثمّ يبتلع هكذا.

وقلّد حركة خفق جناحَيه أيضاً.

44

في اليوم التالي، تحقّقت مخاوفها.

بعد أن خرجت متأخّرةً من المصنع، عادت دون أن تمرّ على المتجر. كانت تصعد الدرج بخطوات سريعة حينما لمحَت شبح شخصٍ يقف أمام بابهما.

حينما توقّفت، استدار الشخص.

كان رئيس جمعية السكّان.

رفعت ريتسوكو غريزياً إحدى يديها إلى صدرها.

- أوه... هل هناك مشكلة؟

كان رجلاً ذا جبينٍ عريض يلمع بالدهون.

يُقال إنّه كان يعمل في البلدية قبل بضع سنوات. أما الآن وقد تقاعد، فقد نصّب نفسه مراقباً على المجمّع السكني. خلف نظّاراته

ذات الإطار المعدني، وقعت نظرته المتحرّية على ريتسوكو. ودون أن يكلّف نفسه، نظرَ إلى تفاصيل رقبتها وصدرها.

- ماذا تريد؟

- ألم ترتكبي مخالفةً للنظام، بالصدفة؟

كادت تترك حقيبتها تسقط أرضاً، وبدأ دمها يغلي تحت جلدها:

- وهل أطلب منك المغفرة؟

- ألم تربّي طير مينا؟

- طير مينا؟

قالت في نفسها إنّهم لا بدّ وقد سمعوه ينعق.

كان الرجل يحاول أن يلتقط صوت صيحات جونسون عبر الباب، مستعدّاً للتصرّف.

ردّت ريتسوكو، وهي على حافة التأتأة:

- ليس لدينا طير مينا.

كان ذلك صحيحاً، إذ لم يكن هناك بالفعل طير مينا.

- أحدهم رآكم.

- رأى ماذا؟

- لقد قيل لي إنّ ابنكِ صعد السلالم، وطير مينا بين ذراعيه.

بدا الرجل معجباً بنفسه.

- إلى متى تعود هذه الحكاية؟

- اليوم.

شعرت ريتسوكو بالحيرة، فتشبّثت بالصلوات.

يويتشي وجونسون، احبسا أنفاسكما خلف الباب!

أرجوكما، لا تُثيرا أدنى صوت. جونسون، لا تنعق.

- هل قلت إنّ ابني صعد اليوم الدرج، وبين ذراعَيه طير مينا؟

- بالضبط. لقد رآه أحدهم.

- وأنت، ماذا تفعل هنا؟

من فضلك! يا جونسون، لا تصدر صوتاً. سوف أخلّصنا من هذا الرجل.

- حسناً، إذا كان لديكم طير مينا، سوف يزقزق في النهاية بالتأكيد.

رفعت ريتسوكو نبرة صوتها:

- أنت تتجسّس علينا، إذاً.

- ما... ماذا؟

- أنت متلصّص.

- ماذا تقولين؟ أنا رئيس جمعية السكّان! أنا أتصرّف لصالح المجتمع.

جونسون، لا تُصدر صوتاً!

استأنف الرجل حديثه:

- أنا لا أقوم بأيّ عملٍ خاطئ. أنتِ تخالفين النظام، وأنا جئتُ لكي أتأكّد من ذلك، وهذا كلّ ما في الأمر. أنتِ تلقين الكلام جزافاً. أنا أعملُ لصالح مجموع السكّان.

كان غضبه عاصفاً لدرجة أنّ لونَ وجهه بات قرمزياً.

- في هذه الحالة، أنا أؤكّد لك ذلك: لا يوجد طير مينا في منزلي. إذا بقيت أمام باب بيتي، سوف أستدعي الشرطة.

- هذا هراء!

أصبح وجه الرجل قناعاً من الغضب.

على الدرج، سدّدَ ضربةً بقبضته على الجدار، جعلته يرتجّ.

صرخ:

- وكأنّها في وضعية تسمح لها باستدعاء الشرطة!

تردّدت أصداء كلماته في بهو الدرج.

من الخلف، كان طيفه يشبه حيواناً أكثر ضرراً من الغراب بكثير.

ابتلعت ريتسوكو ريقها؛ كان رأسها يدور.

انتظرت أن تبتعد خطوات الرجل قبل أن تضعَ يدها على مقبض الباب.

- يويتشي، افتح لي الباب.

رُفِعت سلسلة الأمان، ثمّ دار المفتاح في القفل.

على الجانب الآخر من الباب، كان يويتشي يقف، شاحباً تماماً.

45

أبقى الصبي رأسه منحنياً.

كان القفص الكرتوني الذي يضمّ جونسون موضوعاً في الحمّام، مغطّى بغطاء المغطس.

وأوراق الجرائد التي كانت تغطّي أرضية الغرفة اختفت. تشكّل كرة مجعّدة ومرمية في المرحاض.

ممّا لا شكّ فيه أنّه قد فعل كلّ ما بوسعه، وعلى نحوٍ عاجل.

- يويتشي...

لم تستطع ريتسوكو أن تضيف أيّ شيءٍ قبل أن تنهار على الأرض، في المطبخ.

- يويتشي، ما الذي فعلته؟

- عفواً. لقد أخفقتُ.

- تبدو كذلك، في الواقع.

هذا ما شرحه لها، مرتعش الصوت: بعد العودة من المدرسة، كان يلعب مع جونسون عندما أطلق هذا الأخير ذرْقاً ضخماً على فخذه. أسرع إلى فرك سرواله، ولكن خشية من انتشار الرائحة، راح ينظّفه في الحمّام، قبل أن ينشره في الشرفة. وفي تلك اللحظة، تركَ بحماقة بابَ الشرفة مفتوحاً.

حينما سمع النعيق، كان الأوان قد فات. كان جونسون قد أصبحَ في الخارج. وقد حاولَ أن يُمسك به، ولكن عبثاً. تحت أنظاره، خفقَ الطير بجناحَيه، وانطلقَ في الهواء.

- اعتقدتُ أنني لن أراه مرّة أخرى. وأنّه سيذهب بعيداً.

- نعم.

- ولكنه سقط وهو يخبط بجناحَيه.

- لم يطر؟

- كلا.

- سحقاً!

استندت ريتسوكو بيدَيها على الأرضية الخشبية.

- سقط متخبّطاً، وعيناه عليّ.
- يصعب عليّ تخيُّل ذلك. كيف كان يخفق بجناحَيه؟
- نحو الخلف. كما لو أنّه يحاول عدم السقوط، وهو يكتسب الزخم للطيران.
- وبعد ذلك؟
- لقد أذى وجهه على قفص الحاويات، في الأسفل. أصبحتُ في موقفٍ لا أُحسَد عليه، لأنني كنتُ قد سمعتُ عن الفخاخ. فنزلتُ الدرج راكضاً؛ سمعتُه ينعق. كنتُ في غاية القلق. أمسكتُ به وصعدتُ الدرج بأقصى سرعة.
- هل رآكَ أحدٌ؟
- نعم. لقد سمعتُ صوت نافذةٍ تُفتَح. أعتقد أنّ أحداً ما قد رآني.
- إذاً، لقد فسدَ الأمر. سوف نُطلق سراحه نهاية هذا الأسبوع.
لم يُجِب يويتشي، ولكنّه هزّ رأسه ببطء.
- نحن في يوم الخميس؛ إذا توارينا عن الأنظار هذا المساء وطوال نهار الغد، فسننجو.
- نتوارى عن الأنظار؟ ما معنى هذا؟
كان يويتشي يحدِّق في ريتسوكو، بعينَين واسعتَين.
فكّرت أنّ جونسون ينظر إلى ابنها بالعينين نفسهيما.
- حسناً... باختصار، لا ينبغي أن نثير ضجيجاً.
- لا ينبغي أن ينعق جونسون، أهذا ما تقصدين؟
- بالضبط.

نهضت ريتسوكو واتّصلت بحانة الكاريوكي.

أخبرت الإدارة بأنّها سوف تتأخّر في الوصول إلى العمل.

46

ركبت درّاجتها الهوائية، وأسرعت إلى المتجر الكبير.

عبرت صورة وجه رئيس جمعية السكّان ذهنها. كانت تغلي غضباً.

فكّرت في نفسها وهي تقود الدراجة بأنّ هذا الغضب لا بدّ أنّه يظهر على محيّاها.

في المتجر، اشترت وجبة جاهزة من اللحم المقلي وطبقاً من سلطة الأعشاب البحرية لعشاء يويتشي. دفعت ثمنهما. ودسّت في حقيبتها علبةً من **ساتسوما-آغيه** وكيساً من **التشيكوا**، وعلبة من مكعبات لحم العجل الياباني مع الصلصة، وعلبةً من جبنة الموتزاريلا، وأخرى من جبنة الغاودا، وعبوة من اللبن الرائب من ماركة ماتسوني.

ثم ركبت دراجتها الهوائية من جديد وعادت إلى منزلها.

بعد أن وضعت على الطاولة الوجبة الجاهزة والسلطة ليويتشي، جلست أمام طاولة زينتها ووضعت مكياجها في لمح البصر.

وبعد ذلك، غادرت على درّاجتها الهوائية باتجاه الحانة.

47

ما أن بقيَ لوحده، مدّ يويتشي فراشه بجانب القفص الكرتوني.

لا يكاد جونسون يتهيّأ للنعيق حتى يغطّ وجهه داخل القفص.

- اسكت!

- يمكنك أن تقضي حاجاتك، ولكن في صمت.

- سوف تكون الأمور بخير، لا تنعق.

- أنا معك، لا تبكِ.

يعيد على مسمعه مراراً وتكراراً الجُمَل نفسها.

وكما لو أنّه يفهم ما يُقال له، ظلّ جونسون صامتاً، مكتفياً بالسجع بكلّ هدوء في قاع القفص.

48

في اليوم التالي، في الفترة الصباحية.

كانت ريتسوكو تسحب الغبار بالمكنسة الكهربائية عن خطوط الإنتاج عندما اقتربت موظّفةٌ من المكتب بخطواتٍ صغيرة.

أحدهم يطلبها على الهاتف.

الاتصال من مدرسة يويتشي.

تركت كمّامتها في المكان وركضت إلى المكاتب.

كان معلّم ابنها على الطرف الآخر من الخطّ.

- كيف حال يويتشي؟

مندهشةً، تأكّدت ريتسوكو من أنّها تتحدّث بالفعل إلى الشخص الصحيح.

استأنف المعلّم حديثه:

- أنا أُدرك أنّ الأمور صعبة بالنسبة إليك، ولكن ليس من المعقول تركه وحده. إذا كان بالفعل يشكو من شيءٍ ما، يمكنني أن أوصي طبيب أطفالٍ أعرفه.

- ماذا تعني، إن كان يشكو من شيءٍ ما؟

- عفواً؟ أنتِ والدة يويتشي، أليس كذلك؟

هو الآخر لم يعد يفهم شيئاً.

- نعم، أنا هي.

- حسناً، أنا أتّصل بكِ لأنني قلقٌ بشأن يويتشي. كيف حاله؟

- بأفضل حال؛ لقد استيقظ باكراً هذا الصباح، مثل كلّ يوم، وذهب إلى المدرسة.

التزم المعلّم الصمت.

- سيّدتي، لا تقلقي، من فضلكِ.

- حسناً. هل حصل له شيء ما؟

- يويتشي لم يأتِ إلى المدرسة.

- كيف؟

- منذ غادر باكراً يوم الاثنين، لم يأتِ إلى المدرسة.

- قل لي إنّ هذا ليس صحيحاً!

- لم أرَه منذ أسبوع.

ممسكة سمّاعة الهاتف بشدّة، أغمضت ريتسوكو عينَيها.

أحسّت كما لو أنّه تمّ استئصال جزءٍ أساسيٍّ من رأسها؛ كادت تنهار.

- يقوم زملاؤه بزيارته يومياً، وقد صدّقتهم. لقد أخبروني بأنّ يويتشي يتقيّأ كلّ يوم. هذا ليس صحيحاً، أليس كذلك؟ تبّاً لهم، لقد تواطؤا فيما بينهم. لقد خدعونا.

- أنا متأسّفة. سوف آتي في الحال. كلا، بالأحرى، سوف أعود في الحال.

- نعم، اذهبي لرؤيته في البيت. واتّصلي بي حينما تعرفي المزيد عن الأمر...

أغلقت ريتسوكو السمّاعة قبل أن ينهي جملته.

كان موظّفو المكاتب ينظرون إليها.

انحنت لهم انحناءة بسيطة، وأسرعت نحو موقف الدراجات الهوائية دون حتى أن تنزع ثياب العمل.

49

على الرغم من حلول منتصف النهار، إلّا أنّ سلسلة الأمان على باب المدخل كانت مقفلة.

كان يويتشي هنا، لا شك في ذلك.

نادته ريتسوكو عدّة مرّات بصوتٍ خفيض. وانتهى به المطاف أن خرجَ من عتمة المطبخ، في هيئة خانعة. أغلقَ الباب، ثمّ أشار نقرٌ خفيف إلى أنّ السلسلة قد حُلّت.

كادت ريتسوكو تنهال عليه وتصفعه.

صعدت كلماتٌ قاسية إلى شفتَيها.

ولكن هل كان لها الحقّ في أن تتصرّف بهذه الطريقة؟ أنهى السؤال كلّ ملامة.

كان ابنها قد تغيّبَ عن المدرسة، وهي تعرف حقّ المعرفة لماذا.

إنّ ذلك بسبب جونسون، وهي التي تتحمّل المسؤولية على عاتقها، لأنّها هي التي جلبت هذا الطير إلى البيت.

إنّها هي، أمّه، التي وضعت يويتشي في هذا الموقف. إنّها هي السبب لكلّ ما يحدث له الآن.

اعتذرَ الصبي:

- المعذرة.

كانت يداه مغطّاتَين بالرغوة. حينما تكلّم، حانياً رأسه، سقطت منه علبة.

ترى هل كان يجلي كلّ يوم الأواني التي لم يكن قد استخدمها؟

- هل كنتَ تغسل عيدان الطعام خاصّتك كلّ يوم؟

- نعم.

- لماذا؟

كانت ريتسوكو تعرف الجواب، ومع ذلك طرحت السؤال.

غمغم:

- لأنّه...

أوشك على البكاء.

- لأنّه لو انتبهتِ إلى أنني لم أكن أستخدمها، لأدركتِ أنني لم أكن أذهب إلى المدرسة.

- ماذا كنتَ تأكل، في الظهيرة؟

ظلّ صامتاً.

- أجبني، ماذا أكلتَ؟

- لا شيء.

أبقى شفتَيه مطبقتَين بشدّة، ربّما ليمتنع عن البكاء.

- أحمق. لم تأكل شيئاً، ولكنك غسلت عيدان الطعام والشوكة خاصّتك كلّ يوم؟

- أجل.

- أجل؟

- لو أنّ جونسون نعق، لتسبّب بقتل نفسه.

- هل أمضيت كلّ الأسبوع معه؟

- نعم.

تُرى هل سمع الطير اسمه؟ فقد تحرّك جونسون بصخبٍ في قفصه. أمّا يويتشي، الذي تهيّأ لرفع الغطاء عن قفصه، فقد أوقف حركته. نظر إلى ريتسوكو من الأسفل، وهو في حالة ترقُّب.

اقتربت منه بهدوء.

في حين كانت قبل بضع دقائق خلَتْ تتمالك نفسها لكي لا توجّه له صفعةً، أنزلت راحة يدها بلطف على رأس ابنها.

كرّر اعتذاره:

- المعذرة.

داعبت رأسه الحليق.

- يويتشي.

- نعم.

- ليس من الجيّد أن تكذب، ولكن. . . لم ألاحظ بأنّك كنت تُتعب نفسك كلّ هذا التعب.

- هل اكتشف المعلّم الأمر؟

- نعم، ولهذا السبب أنا هنا الآن.

- وكيف سأتصرّف؟

أمسكته من كتفيه وضمّته إليها.

- سوف نُطلق سراح جونسون هذا المساء. لن أذهب إلى العمل في حانة الكاريوكي. وغداً، سوف نذهب لمقابلة معلّمك معاً. أنا أيضاً سأقدّم له اعتذاري. سوف تُخبره بالحقيقة، دون أن تُخفي أيّ شيء. وأنا سأفعل الأمر نفسه. وسيكون هذا أفضل من أن نكذب عليه، وسوف يتفهّم الأمر.

- نعم، ولكن. . .

نظر يويتشي إلى القفص الذي كان يصدر منه صوت احتكاك.

- هل تعتقدين أن جونسون سوف ينجو، بعد هذا المساء؟

- أجل. لقد شُفيت جروحه.

- أين سنطلقه؟

- سوف نفكّر في الأمر. سأعدّ شيئاً لنتناوله على الغداء.

اتّصلت ريتسوكو بالمصنع لتُخبرهم بأنّها لن تعود إلى العمل في ذلك اليوم. ردّ عليها موظّفٌ؛ وقد أظهر قسوة معها. كان المصنع يوافق على أن تنهي دوامها مبكّراً، ولكن إذا ما تكرّر هذا النوع من الحوادث، سيُعاد النظر في عقدها. اعتذرت لعدّة مرّات قبل أن تُغلق السماعة بصمت.

ثمّ فتحت باب الثلّاجة لترى ما فيها.

وهي ترفع كمّي صدريتها الخاصّة بالعمل، ذهبت إلى الموقد لإعداد الطعام.

وجدت عيدان الطعام والشوكة النظيفة خاصّة يويتشي مصفوفة على الرفّ.

كانت رؤيتها لا تُطاق بالنسبة إليها، فأشاحت ببصرها عنها. مستندةً بيديها على حافة المغسلة، أغمضَت عينَيها.

50

على الغداء، تناولا نودلز مقلي مع البيض.

ترك يويتشي نصف طبقه من الطعام.

وداع جونسون، والاعتذار لمعلّمه، والعقاب الذي ينتظر بكلّ تأكيد زملاءه الذين غطّوا عليه... قال إنّ هذه هي الأثقال الثلاثة التي تُثقل قلبه. وهذا لم يُفاجئ ريتسوكو، التي كانت بسنواتها الأربعين تعاني من الحالة نفسها. أكثر من رحيل جونسون، كان التفكير بالمبرِّرات التي سوف تقدّمها للمعلم هو الذي يشغل بالها أثناء تحضيرها للنودلز.

كان الوحيد الذي أكل بشهيّة مفتوحة هو جونسون.

لقد التهم في لمحة عين قطعتَي **التشيكوا** التي فتّتهما له يويتشي.

وقد أطلق بعد ذلك نعيقاً مدوّياً وانطلق طائراً بشكلٍ مستقيم نحو السقف، الذي صدم رأسه به.

51

عثرا على صندوقٍ لنقل جونسون.

إنّه الصندوق الكرتوني لمحمصة الخبز.

كان الصندوق أصغر بكثير من الصندوق الذي استُخدِم قفصاً له. ولكن بالنسبة إلى السفر بالقطار، كان هذا هو الحجم المناسب.

- هل سوف نُخبرُ موظّف المحطّة بأنّه يوجد غرابٌ داخل الصندوق؟

- إذا ما أخبرناه بذلك، فلن يسمح لنا بركوب القطار.

- ولكن هناك الكثير من الناس الذين ينقلون قططهم، على سبيل المثال، في صندوقٍ، ولا يُخفون ذلك.

- ولكنني أؤكّد لك أنّ هذا غير مسموح بالنسبة إلى الغربان.

- لماذا؟

- لماذا. . . لأنّ الغربان ليست محبوبة.

كانا يفكّران، منحنيَين فوق خريطةٍ.

كان الأمر يتعلّق بإيجادِ مكانٍ لإطلاق سراحه فيه.

لم تكن أيّ مدينة تستقبل الغربان بطيب خاطر؛ ولم تكن بلدتهم استثناءً. لا بدّ أن يكون الريف ملائماً أكثر، قرب غابةٍ أو نهرٍ إن أمكن.

كان يويتشي، ممدّداً على بطنه، يتابع بإصبعه أثر خطٍّ حديديٍّ خاص. سوف يقودهما الخط في غضون ساعةٍ تقريباً إلى منطقة تكثر فيها الأودية. كانت بعض أسماء المحطات مشهورة برحلاتها السياحية.

قالت ريتسوكو:

- قد يكون من المناسب إطلاقه هنا.

- نعم. ومن ثمّ، هناك، سيكون بوسعي أن أزوره من وقتٍ لآخر.

وبدأ وجه يويتشي، الذي كان متشنّجاً منذ فترة الغداء، يسترخي أخيراً.

- ولكن كيف ستميّزه عن الغربان الأخرى؟

- بفضل الندبة التي على رأسه؟

- ندبته... ربّما.

توجّه يويتشي نحو القفص الكرتوني، وأخذ بين ذراعَيه جونسون الذي رفرف بجناحَيه وعاد معه. كانت جمجمته تحمل بالفعل ندبةً، ولكن ريشاً أسود قد بدأ يغطّيها.

- ها أنت ترى، يشفى شيئاً فشيئاً. من الآن وحتى شهرَين أو ثلاثة، لن نعود نرى أي أثر للندبة. وسط سربٍ من الغربان، سيكون من المستحيل تعرّفه.

لم تكن ترغب في أن تُحبِطَ يويتشي، ولكن كانت هذه هي الحقيقة. لم يكن جسم وجناحا جونسون قد أصبحوا جسد وجناحَي طير بالغ. ولكن إذا نجا، سوف يصبح سريعاً غراباً عادياً، وبالتالي لن يعود يتميّز في شيءٍ عن الآخرين.

- ألا تعتقدين أنّ جونسون بنفسه سوف يعرفني؟

- تقصد سوف يتذكّرك؟

- نعم. إنّه ذكي، إذا ما ناديته باسمه، ربّما سوف يطير نحوي.

فكّرت مع ابتسامةٍ بأنّ هذا ما كان في ذهنه.

- يُقال إنّها تستطيع أن تحفظ كلمات، ولكن بما أنّه لم يبقَ معنا لوقتٍ طويلٍ، يبدو لي هذا صعباً. هذا ليس أمراً خطيراً. لقد فعلنا كلّ ما استطعنا من أجله، وبالتالي، من الآن فصاعداً، دعنا ننساه.

- لماذا؟

- لأنّه يجب أن يعود إلى الحالة البرّية. من الأفضل أن ينسى إقامته بين البشر.

- هل تعتقدين ذلك؟

جلس يويتشي، وجونسون بين ذراعَيه، وهو يبدو غير مقتنعٍ. وكان الطير، مفتوح المنقار قليلاً، يُدير رأسه مثل دميةٍ، تنتقل نظرته من ذقن يويتشي إلى عينَي ريتسوكو.

52

كانا قد اتّخذا قرارهما. كما لو أنّه أراد أن يحتفي به ويحتفل بمستقبل جونسون، كان غروب الشمس رائعاً في ذلك المساء.

يشبه نصف السماء حبّة مشمش ناضجة للغاية. كان البرتقالي والأحمر، هنا وهناك، يتداخلان فيه. وكان رأس يويتشي، المنهمك في تفتيت التشيكوا، يلمع تحت أشعة غروب الشمس التي تتسرّب عبر النافذة.

قال وهو يكدّس جبلاً من التشيكوا بجانب جونسون:

- هذه وجبتك الأخيرة.

اتّصلت ريتسوكو بالحانة لتخبرهم أنّها لن تستطيع أن تعمل هذا المساء. هنا أيضاً، تمّ توبيخها، إذ قيل لها: «كان يمكنكِ أن تخبرينا في وقتٍ مبكِّر»، ولكن باتَ كلّ شيء سيّان عندها في تلك اللحظة.

بفضل جونسون، سوف تقوم برحلةٍ ليلية مع ابنها.

وكان الأمر جيّداً هكذا.

أمّا مشاكلها، فسوف تفكّر فيها غداً.

بعد إطلاق جونسون، سوف يذهبان إلى المطعم.

قالت في نفسها، وهي ترتدي سروال جينز، بأنّهما يستطيعان أن يسمحا لنفسيهما بذلك، مرّة واحدة من وقتٍ لآخر.

53

لقد دُقّ الباب في اللحظة التي كانت تُخبر يويتشي «هذا المساء، سوف نتناول العشاء في الخارج».

كان مشروعهما في إطلاق سراح جونسون قد أثار حماستها من دون شكّ، تماماً مثل إلغائها لعملها في الحانة. ففتحت الباب دون أدنى تردُّد.

يا له من تهوّر!

كان عليها أن تشبك سلسلة الأمان. أو على الأقلّ، أن تتأكَّد من هوية الطارق.

في اللحظة التي اكتشفت فيها وجه رئيس جمعية السكّان،

جاءت عصا وانحصرت بين درفة الباب وإطاره. بذلت جهدها لتضغط على المقبض لكي تُغلق الباب، لكنّ الأوان كان قد فات.

- ماذا تريد؟

ارتفع صوتها.

كان وجه الرجل جامداً مثل الحجر. تحرّكت شفتاه اللئيمتان في كتلة مع بقية ملامح وجهه.

- يا سيّدتي، هذه هي القوانين. لقد جئتُ مع الحارس، وشخصٍ من البلدية.

- هلا سمحتِ لنا بالدخول؟

كان حارس المجمّع هو الذي أدخل العصا بين درفة الباب نصف المفتوح وإطاره.

ضغطت ريتسوكو بكلِّ قواها على مقبض الباب.

رفع الحارس من نبرة صوته:

- توقّفي! لا جدوى من هذا. افتحي الباب الآن.

- لقد قمنا بتسجيلٍ صوتيٍّ من الشقة التي تقع تحت شقّتكم. في الواقع، ليس هناك طير مينا في منزلك. ما تربّينه، هو...

أمسكت يد رئيس الجمعية حرف الباب.

ضغطت ريتسوكو على مقبض الباب بقوّة.

- إنّه غرابٌ، أليس كذلك؟

فُتِح الباب بعنفٍ تحت الجهد المشترَك للرجلَين.

كان هناك رئيس الجمعية، والحارس، ورجلٌ شابّ آخر. كان الشاب، مرتدياً بزّة عمل رمادية، يمسك بيده قفصاً معدنياً وشبكة كبيرة.

- سوف ندخل.

أخذ الحارس الشبكة من بين يدَي الرجل الشاب، وبدأ بخلع حذاءه.

صاحت ريتسوكو، بل صرخت تقريباً:

- هل لديكم إذنٌ بالتفتيش؟ وإلّا فهذا انتهاكٌ لحرمة منزل. سوف أطلب الشرطة!

قال رئيس الجمعية، موبِّخاً:

- هل تتصوّرين أنّكِ في وضعٍ يسمح لكِ بطلب الشرطة؟

كان الرجل الشاب، والقفص في يده، يرمش بعينَيه.

- توقّفوا! ليس لدينا غرابٌ.

- في هذه الحالة، مَن الذي ينعقُ مثل غرابٍ؟ في كلّ الأحوال سوف نتحقّق من ذلك.

اعترضت ريتسوكو طريق الحارس الذي حاول أن يدخل، ووقفت في وجهه.

- هذا انتهاكٌ لحرمة منزل!

ردّ رئيس الجمعية غاضباً والرذاذ يتطاير من فمه:

- قبل كلّ شيء، أنتِ من قمتِ بانتهاك القوانين. ووصفتني بأنني متلصِّص. هذا قذفٌ وتشهيرٌ.

صرخت ريتسوكو، وبصقت عليه:

- اسكت!

- يا لها من امرأة! هيّا، فلندخل. هناك غرابٌ في الداخل.

- توقّفوا!

دفعت بكلتا يدَيها الحارس الذي كان يحاول أن يدخل. وفي الوقت نفسه، دفعها رئيس الجمعية.

- يبذل الجميع جهودهم لجعل هذه المدينة أجمل، وأنتِ تحوين في منزلكِ أحد هذه الطيور القذرة!

دفعها من جديد. سقطت ريتسوكو، خائرة القوى، إلى الخلف.

تقدّم الرجلان تحت أنظارها.

- يويتشي! يويتشي!

لم يدخل الرجل الشاب. وقف في المدخل، جامداً بلا حراك.

دخل رئيس الجمعية والحارس إلى الغرفة، والشبكة في أيديهما.

لحقت بهما ريتسوكو زاحفةً وهي تصرخ.

- لا يوجد طيرٌ. أين هو؟

- النافذة مفتوحة.

كان صوت بكاء يويتشي يتصاعد من الشرفة.

ارتمت ريتسوكو على ظهر الرئيس الذي وقع على الأرض. حاول الحارس أن ينقذه من بين قبضتها.

- كنتِ تريدين استدعاء الشرطة، حسناً، فلنطلبها! سوف تُتّهمين بإعاقة ممارسة وظائف الحراسة!

في العمارة المقابلة، انفتحت نوافذُ هنا وهناك، تاركةً وجوهاً تظهر من خلالها.

كان يويتشي ينتحب.

انتقل الرجال الثلاثة بسرعة إلى الشرفة، وهم لا يزالون يكافحون.

كان الصبي يقف في الطرف الآخر، وجونسون بين ذراعَيه. يبكي بحرقة، ووجهه شاحبٌ.

- يويتشي!

زعق الرئيس:

- ها هو، إنّه بالفعل غرابٌ. ما الذي في ذهن هذين الشخصَين؟

صرخ الحارس باتجاه الرجل الشاب الذي ظلَّ مذهولاً في المدخل:

- هاتِ القفص!

- يويتشي!

فتح يويتشي فمه واسعاً.

كان صدره يرتجف، ويجد صعوبة في التنفُّس.

أطلق جونسون في الهواء.

وجد الطيرُ نفسه طليقاً في السماء الداكنة، التي يكتنفها ضوءٌ خفيف.

هوى لبضعة أمتارٍ قبل أن يبدأ فجأةً بتحريك جناحيه.

- جونسون، طِرْ!

ضرب يويتشي بيدَيه على درابزين الشرفة.

هل شكّل هذا حافزاً؟ لقد استعاد جونسون ارتفاعه. وقد ناور يميناً ويساراً وهو يخفق بجناحَيه.

قاق!

مع نعيقٍ، حلّقَ عالياً أكثر.

تجاوز سريعاً شرفة الطابق الثالث. وواصل الارتفاع بالتدريج.

- طِرْ، يا جونسون! طِرْ! طِرْ!

واصلَ يويتشي الضرب بقبضته على درابزين الشرفة.

انسلّت ريتسوكو من بين الرجال لكي تهرع نحو ابنها، الذي ضمّته بين ذراعَيها.

كانت قبضتا يد الصبي مخضّبتَين بالدم. أخذتهما بين يدَيها.

- طِرْ، يا جونسون! طِرْ! طِرْ!

بين ذراعَي أمّه، ردّد يويتشي عبارة التشجيع نفسها.

كان يواصل ترديد هذا التشجيع، وقد تبلّلَ وجهه بالمخاط والدموع.

- طِرْ!

كان الحارس، بادي الاستياء، ينظر إلى جونسون وهو يخفق بجناحَيه.

ثمّ هزّ رأسه وغادر الشرفة. بعد مضي برهةٍ، سُمِعَ صوته وهو يصرخ:

- لقد أفلَت من بين يدينا بسببك!

ردّ الرجل الشاب:

- هذا النوع من التدخّل لا يخصّني.

كان رئيس الجمعية، الغاضب، ينظر بالتناوب إلى شبح جونسون وريتسوكو.

صرخت الأمّ:

- هيّا انصرفوا!

لم يتحرّك من مكانه.

حينما ألقت صندلاً باتجاهه، غادر أخيراً وهو يُطلق رشقةً أخيرة من الشتائم.

ردّد يويتشي من جديد:

- طِرْ! طِرْ! طِرْ!

ومع صرخة ألم، ارتمى على صدر ريتسوكو، وضمّها بشدّة.

- يويتشي! لقد طارَ جونسون.

على وقع صوت أمّه، رفع وجهه المبلَّل بالدموع.

كان شبح جونسون قد ابتعد.

كما لو أنّ السماء الداكنة امتصّته، كان يحلّق عالياً، عالياً جدّاً.

54

حلّق جونسون من دون توقُّف.

في كلّ خفقة للجناحَين، كان المشهد يبتعد تحت أنظاره.

أسطح المجمّع السكني. أسقف المنازل. أضواء المدينة.

كانت هذه المرّة الأولى التي يجدُ فيها نفسه في سماءٍ حقيقية.

استسلم للانقياد مع الريح. كانت الريح تسير ضدّه. استسلم للزوابع التي تتقاذفه.

كان الهواء الذي يميل إلى الأزرق الغامق متشكِّلاً من طبقات مختلفة.

في حين كان جونسون يعتقد أنّه يطيرُ على نحوٍ مستقيم، كان ينحرف جانباً؛ وبينما يحاول أن يرتفع، كان غطاءٌ يضغط على رأسه.

المتعة التي استمدّها من الطيران، والخوف من المجهول، جعلاه هذان الإحاساسان المتناقضان يرتعش.

في كلّ خفقة للجناحَين، كانت عضلات ظهره ترتجف.

كانت كلّ ريشة من ريشه تستجيب للتيارات الهوائية، وتحاول أن تدلّه كيف يوجّه الخفقة المقبلة لجناحه.

يا له من إحساسٍ في الطيران!

كان كلّ شيء جديداً بالنسبة إليه.

حتى الاتساع اللانهائي للسماء، الذي كان يكتشفه للمرّة الأولى.

طار من دون توقّف. فكّر في يويتشي وريتسوكو.

أليس عليه العودة إلى هناك؟

هناك حيث يوجد هؤلاء «البشر».

«البشر»، هذه الكلمة التي علّمته إياها أمّه قبل أن يسقط عشّهم. كانت تعني بكلّ تأكيد حقيقة يويتشي وريتسوكو. طالما أنّ لهما نفس شكل الكائنات التي تتحرّك في الفناء تحت شجرة أرز الهيمالايا.

ولكن الرجال الذين حاولوا إلحاق الأذى به كانوا هم أيضاً بشراً.

لقد حماه بشرٌ، وأطعموه.

وحاول بشرٌ أن يأسروه. وعاملوا أقرانه بقسوة وعنف.

عليه أن يعود إليهم.

كلا، عليه أن يواصل الطيران. للفرار منهم.

واقعاً بين نارَين، واصل جونسون الطيران.

55

حتى هبوط الليل، كان يويتشي لا يزال في الشرفة.

آملاً أنّ جونسون، ربّما، سوف يعود.

جونسون الذي كان قد حلّقَ بعيداً جدّاً بحيث انتهى إلى غيابه عن النظر - وقد ابتلعته السماء.

كان شبحه الذي يخفق بجناحَيه لا يزال مطبوعاً في عينَيه، فشدّ يويتشي بقوّة على قبضتَيه. لقد أحسّ بفراغٍ شبيهٍ بالذي عانى منه حينما تأكّد من رحيل والده.

لقد نجح جونسون في الطيران، دون أن يسقط من الشرفة، وقد فشلَ الرجال الثلاثة في إلقاء القبض عليه. لقد تصرّف كبطل. لكنّه اختفى من دون أن يظهر وهو يحطّ في مكانٍ ما، دون أن يلتفت إلى الوراء ولو مرّة واحدة، وهذا ما لم يكن الصبي يقبل به.

- أنت تعلم أنّ جونسون قد أدرك جيّداً أنّه كان في خطرٍ. لقد شعرتُ بأنّه يفرّ بكلّ قواه.

واقفةً خلفه، كانت ريتسوكو تتأمّل هي الأخرى السماء المظلمة.

أضافت:

- تُرى أين يمكنه أن يكون الآن؟

- امم.

- لقد تغيّر الفصل دون أن ننتبه إلى ذلك.

- امم.

- إنّ هذه الرياح التي تهبّ هي رياح الخريف.

- اممم.

عبثاً وضعت يدها على كتفه، لم يغادر يويتشي الشرفة.

كلّما سمع صوت نعيقٍ قادمٍ من بعيد، انحنى من فوق الدرابزين.

ثمّ، غمغم بصوتٍ خفيضٍ: «جونسون، أنا هنا».

بحثاً عن ظلٍّ ينبثق من السماء المعتمة، كان يفتّش في الأنحاء، وعيناه ترفرفان.

- عد الآن، أرجوك.

نادته ريتسوكو عدّة مرّات، ولكنّه أصرّ على البقاء في الشرفة.

- اممم.

وفي نهاية المطاف، ظلّ في الشرفة إلى أن صعدت النجوم الثلاثة لكوكبة الجبار في السماء.

اقترحت عليه ريتسوكو أن تمدّ فراشَيهما بالقرب من باب الشرفة، الذي تركاه مواربًا في الليل.

وافقَ يويتشي دون تردّدٍ.

استلقى لينام وهو ينظر إلى السماء المطرّزة بالنجوم. كان الهواء الذي يدخل إلى الغرفة يزداد برودةً تدريجيّاً، ولكنّه ظلّ ينظر إلى الخارج، ورأسه خارج اللحاف.

56

فسحةٌ حيث تتعاقبُ فيها دون توقّفٍ كتلٌ مهيبة.

وإلى جانبها تماماً، فناءٌ تصطفُّ فيه علبٌ معدنية مضيئة.

كان عليه أن يُريح جناحيه. أحسَّ بذلك.

وأدرك أنّ عليه أن يأكل.

جسمه، وجناحاه، وعيناه، ومنقاره، كان كلّ شيء فيه يتطلّب ذلك.

اختار جونسون مشاتل الزهور في موقفٍ للسيارات، لأنّ فيها أشجاراً مورقة. سيكون بوسعه أن يستريح بمنأى عن الأنظار. علاوة على ذلك، كانت الأرضية المنارة بأضواء أجهزة توزيع المشروبات مليئة بالفضلات التي طفحت بها حاويات القمامة الممتلئة بإفراط، وتناثرت من حولها. وكان كلّ هذا في نظره طعاماً.

حطَّ في البداية على قمّة شجرة، حيث انتظر إلى أن يغادر التعب جناحَيه.

ثمّ طار بخطٍّ مستقيم نحو الحاويات لكي يبحث فيها عن شيءٍ ما ليأكله.

في الحال، وصل شبحان ضخمان.

كانا غرابَين مثله. طيران بالغان.

فجأةً، تلقى ضربة منقارٍ في رقبته. حينما قفزَ جانباً، مشوَّشاً، انقضّ الغراب الآخر عليه، ومخالبه ممدودة إلى الأمام.

نظر إليه الغرابان نظرة شريرة.

اقتربا بكلّ سرعة وهما ينعقان نعيقاً عدائياً.

فُردت أجنحتهما. كانت كبيرة وواسعة.

سجع جونسون، مهزوماً. انهالت عليه عاصفةٌ من ضربات المنقار. تراخت رجلاه تحت جسمه.

كانت أعين الغرابَين الضخمَين تصرخ في وجهه: «انصرف من هنا!».

كان جرح رأسه ينغزه.

طارَ، مرفرفاً بجناحَيه، باتجاه الظلام الدامس.

57

تقدّم جونسون على طول الجادة الواسعة.

أحسّ أنّ جناحيه ثقيلان جدّاً، وشعر بأنّ لحظةً من الاسترخاء كانت كافية لكي يسقط مثل حجرٍ.

لقد هزّه بعمق أن يُهاجَم من قبل طيورٍ تذكّره بأمّه. أراد أن يرتاح، ولكن أين؟ ملسوعاً، كان يخشى أن يتعرّض لوابلٍ جديد من ضربات المنقار. كانت كلّ الأماكن المضاءة تبدو له خطرة.

كان جائعاً، وعطشان. يحتاج إلى ماء.

لم يكن جناحاه فقط، بل ظهره أيضاً يتخدّر الآن. كان يفقد العلو، كما لو أنّ ثقلاً يضغط على جسمه.

وإذ لم يعد قادراً على الصمود، حطَّ في الفاصل الأوسط للطريق.

في الفاصل عشبٌ وشُجيرات.

فكّر بأنّه يستطيع أن يستردّ، في ظلّها، أنفاسه بعض الشيء.

ولكن الضجيج العالي هو ما عذّبه.

كانت كتل ضخمة تمرّ وتهزّ الهواء. تعصف به، وتلفح وجهه بالغازات التي تطلقها. حرّك جناحَيه، وفتح منقاره، ولكن دون جدوى. كان الغاز الممزوج بالدخان الأسود يخنقه.

طار مرّة أخرى.

وصلَ إلى السماء المعتمة، وهو يخفق بجناحَيه بتراخٍ.

أرادَ أن يعود إلى يويتشي.

ولكن ذلك لم يعد ممكناً. لم يعد يعرف كيف يعود.

58

متى تركت السماء المطرّزة بالنجوم في الجانب الآخر من النافذة مكانها لهذه اللَّوحة؟

كان يويتشي يحلم.

في الشرفة هاتفٌ.

وسط العتمة، وحده جهاز الهاتف كان محاطاً بهالة نورٍ شحيح.

كان يعرف من الذي على الطرف الآخر من الخطّ. إنّه والده، الذي يتّصل به مرّة واحدة في الشهر، ودائماً في التوقيت نفسه.

رفع يويتشي السمّاعة.

سأل محدّثُه، من دون مقدّمات:

- كيف حالك؟

تدفّقَ في ذهن الصبي سيلٌ من الأشياء التي أراد أن يرويها له.

مشاجرة أمّه مع رئيس جمعية السكّان والحارس. الدروس التي تغيّبَ عنها في المدرسة. جونسون الذي طارَ سليماً معافى. الذي رحل دون أن ينظر ولو نظرة واحدة إلى الوراء.

ومع ذلك، لم يقل شيئاً من هذا.

ألحّ والده بالسؤال:

- إذاً؟ أليس لديك ما تُخبرني به؟
- كلا، لا شيء يُذكَر.
- أليست هناك مشاكل؟
- كلا.
- حسناً! أمّا أنا، فقد أوقفتُ شخصاً. شخصٌ شرّير.

بدا مستعداً لمواصلة حديثه، لكنّ يويتشي وضع السمّاعة دون أن يتفوّه بكلمة.

فاختفت هالة النور.

ظلَّ الصبيّ هناك، جالساً القرفصاء في الظلام.

59

توقّف جونسون على سطح منزلٍ. حطَّ على مدخنةٍ. على أغصان شجرة حورٍ. وأراحَ جناحَيه.

في النهاية، لم يكن قد أغمض عينَيه طوال الليل. ولم تُغمض أجفانه الثقيلة، ولم ينم إلّا في الصباح الباكر.

كان في ساحةٍ تقع بين مصنعَين.

وجدَ فيها أشجار الصنوبر والسنديان الياباني، لكنّه لم يكن يتوفّر على القوّة لكي يرتفع إلى أغصانها؛ فقد جثمَ بالقرب من سورٍ من نبات الشمشاد.

كان الجوع يهزّ الأرض من تحت رجلَيه. لم يكن قد شرب قطرةً من الماء، وبدأ يشعر بالحرقة في حلقه الجافّ.

لم يعد جناحاه يحملانه.

وجد نفسه وقد غاصَ صدره في العشب.

هل كان من الممكن أن ينام هكذا؟ كان جونسون يجهل ذلك. كان قلقاً. شيءٌ ما كان يهمس له بأنّه ما كان عليه أن يغفو على الأرض.

ولكن لم يعد قادراً على التحمُّل.

ما كان ينتظره، هل كان النوم أم الفناء؟

حاول قدر المستطاع أن يبقى منتصباً على رجلَيه.

قررر!

في اللحظة نفسها، أحسّ بصدمةٍ على جناحه. وسقط إلى الخلف دون أن يُدرِك ما الذي حدث له. كانت قوّة كبيرة قد ألقت به جانباً.

خفقَ على نحوٍ غريزي بجناحَيه، دون أن يكترث للاتجاه، طالما أنّه يطير.

ولكن قبل أن يفلحَ في الإقلاع، ارتمى عليه حيوانٌ ضخمٌ، لم يسبق له أن رأى مثله أبداً، وقد كشّر عن أنيابه.

مثني الظهر، ومجعّد الشعر، وثبَ الوحش. شقّ الهواء بمخالبه البارزة.

قفزَ جونسون قفزةً إلى الوراء، وقد مدّ رجليه إلى الأمام ليحمي نفسه.

لامست مخالب الوحش رجلَيه. دار جسمه، وفقد توازنه، فانقلب على العشب، الذي اصطدم جناحه الأيمن به أوّلاً.

انقلب كلّ شيء رأساً على عقب في حقل رؤيته. وعندئذٍ، انقضّ الحيوان عليه.

قررر!

شقّت المخالب الحادّة جناحه الأيسر. تدحرج جونسون على العشب، وهو يخبط بجناحَيه. هرب إلى الخلف.

«سأقتلك»، هذا ما كانت تنطق به نظرة الحيوان المتوحِّش بوضوح.

كانت عيناه نفس عينَي الشبح البني الذي كان قد أرعبه في عشّه. العينان الثاقبتان للطير الضخم الذي مزّقَ سارق. النظرة نفسها مثبّتة عليه الآن.

أقلع جونسون عَمودياً، وفي اللحظة نفسها تقريباً، وثبَ الحيوان. لو أنّه ألقى برجليه إلى الأمام، لثبّته على الأرض. ولكنّه اختار أن يُخرِجَ أنيابه بدل مخالبه. ارتمى، مفتوح الفم، على جناح الغراب الصغير، جاهزاً لأن يقتلعه.

كانت هذه فرصته الوحيدة.

اصطدمت مخالب جونسون برأس الحيوان المتوحّش.

استمر في خفق جناحَيه.

في اللحظة نفسها، تقلّص حجم شبح مهاجمه. وابتعدَ عن نظره سور نبات الشمشاد والسنديان الياباني.

تساقطَ بعض الريش من جناحَيه المتحركين. آلمه ذلك.

أطلق جونسون صرخةً باتجاه يويتشي. كم كان يريد أن يجثم بين ذراعَيه من جديد. كم كان يريد أن يعود إلى قفصه الكرتوني من جديد.

60

حضرَ يويتشي وريتسوكو إلى المدرسة، في غرفة المعلّمين.

كان يوم عطلة، لكنّ المعلم كان قد طلبهما على وجه السرعة.

أقرّ يويتشي بكلّ شيء، دون أن يُخفي شيئاً.

ظلّت ريتسوكو منحنية، طوال الوقت الذي تحدّثَ فيه.

بعد أن أصغى إليه، تمتمَ المعلِّم:

- يويتشي، سوف تكتبُ لي موضوعاً حول ما جرى معك.

حكّ الصبي قفا رأسه، مرتبكاً.

أمّا ريتسوكو، فقد تفرّست في المعلّم.

استأنفَ حديثه:

- لا أدري إن كان عليّ أن أوبّخك أم لا. بالطبع، من وجهة نظر المدرسة، ما فعلتَه هو أمرٌ سيّئ. لقد تغيّبت عن دروسك. تصرفاتك غير مقبولة، لا في المدرسة، ولا في المجتمع. وعلاوة على ذلك، لقد كذبتَ. وقد سخرتَ منّي، ومن والدتكَ. ولهذا السبب، أنت مدينٌ لنا بالاعتذار. ولكن، كيف أقول... من جهة أخرى أنا أفهمك، فما فعلتَه هو تصرّفٌ إنساني. لو كنتُ مكانك، ربّما كنتُ أنا أيضاً سأتغيّب عن المدرسة. لقد تبنّيت هذا الخيار بعد أن تردّدت كثيراً، أليس كذلك؟

- نعم.

هزّ يويتشي رأسه باستحياء، خافض الكتفَين.

- حالات تردّدك وأفراحك وأحزانك... سوف تُفرغُ كلّ هذا

على الورق. سوف تكتب، وسوف تفكّر في مشاعرك، وتحلّلها من وجهة نظرك كصبيٍّ في الحادية عشرة من عمره.

- نعم.

لم يكن يويتشي يفهم نصف ما يقوله المعلّم.

- متى ينبغي أن يُسلّم لكم هذا الموضوع الإنشائي؟

الغريب أن ريتسوكو هي التي سألت بقلق عن موعد تسليم الوظيفة التي طلبها المعلّم.

أجاب المعلّم مع ضحكةٍ خفيفةٍ:

- لا تهتمّي بالأمر، سيّدتي. على المعنيّ الرئيس أن يقرّر ذلك. . . أليس كذلك، يا يويتشي؟

- نعم.

- إذا كتبت هذا الموضوع الإنشائي، سوف يُعفى عنك. ولكن لا ينبغي لك القيام بهذا الواجب فقط لأنني طلبته منك. وسوف أرى ذلك على الفور، إن كانت هذه هي الحال. وهذا الأمر لا يهمّني. حينما تعبّر عن مشاعرك الحقيقية، بكلماتك الخاصّة، حينها، سوف أقرأ موضوعك، حتى إن كان لديّ الكثير من العمل. وسوف أعفو عنك. خذ وقتك، وسوف تسلّمني إيّاه، حينما تكون جاهزاً لذلك.

حينما انحنت ريتسوكو مرّة أخرى أمامه، ضحك المعلّم وهو يمرّر يده على خدّه:

- هذا هو. تكتب لي موضوعاً، وسأمحي كلّ شيء.

حكّ يويتشي مرّة أخرى قفا رأسه. كانت هذه عادةٌ يُكرّرها عندما يكون مرتبكاً.

كانت المواضيع الإنشائية هي أقلّ ما يُحبّ.

بالطبع، كان المعلم يعرف ذلك تمام المعرفة.

61

في ذلك اليوم أيضاً، عند غروب الشمس، ظلّ واقفاً على الشرفة.

لدى رؤيته لأيّ شبحٍ لغرابٍ من بعيد، كان ينحني من فوق الدرابزين.

وفي كلّ مرّة، يصرخ: «جونسون!».

لكن الشبح المجنّح كان يكتفي بعبور السماء عند الشفق. دون أن يغيّر اتجاهه، وحتى دون أن يُلقي عليه نظرة.

انتهت السماء بأن اصطبغت باللون الأزرق، وهبطَ الليل.

عاد يويتشي إلى الداخل، تاركاً النافذة مفتوحة على مصراعيها، وجلس على كرسيٍّ.

كانت أوراق ذات مربّعات مفروشة على الطاولة. اشترتها ريتسوكو من المتجر قبل أن تذهب إلى العمل في حانة الكاريوكي.

أمسكَ يويتشي بقلمه الرصاص، وكتب في أعلى يمين الورقة: «الغراب وأنا». كما دوّن اسمه. ثمّ أسند خدّه على قبضته وتأمّلَ الخانات الفارغة.

62

أراد جونسون أن يعود إلى حيث عاش مع يويتشي. كان يحلم بذلك.

من سطح منزل إلى سطح مصنع، يحاول أن يحدّد الشقّة التي كانت تحتوي صندوقه الكرتوني.

ولكن أينما حلّ، لا شيء يسمح له بالأمل في العثور على المكان الذي يحتفظ به في ذاكرته.

كان جوعه الآن لا حدود له.

لم يكن جسمه بالكامل سوى بؤرة للألم.

كان يشعر في عظامه بالجرح الذي أحدثه الحيوان المتوحِّش، وبجناحه العاري من الريش، كان يصعب عليه حتى أن يرفرفَ من سطحٍ إلى آخر.

عثرَ على صندوقٍ كرتوني بين الأعشاب البرية في أرضٍ بائرة خلف المباني مسبقة الصنع لمصنعٍ.

صندوقٌ مرميّ هناك، متروكٌ للأحوال الجوية. نصف متحلّل.

سجع جونسون، والحقيقة أنّه هوى على هذه الأرض المفتوحة أكثر من أن يحطّ فيها بشكلٍ طبيعي. ضمّ جناحَيه، قلقاً: تُرى ألن يظهر حيوانٌ متوحّشٌ من حيث لا ندري؟

وهو يشقّ طريقه بين العشب، اقتربَ من الصندوق. كانت تفرّعات وجذورٌ من الأعشاب تغطّيه.

بالطبع، لم يكن يويتشي موجوداً في أيّ مكانٍ من تلك

الأرض، وكذلك لم يكن هناك فُتات التشيكوا المنثور بعناية من قبله.

نعق جونسون نعيقاً ضعيفاً.

ربّما في ردّ فعلٍ على صوته، أطلقت حُزَم العشب الأقرب إليه سرباً من الطيور الصغيرة.

سربٌ من الزرازير الرمادية.

رفرف جونسون، مترنّحاً، بجناحَيه لكي يحطّ في المكان الذي كانت تلك الطيور تشغله.

وجد هناك قناة ماءٍ صغيرة.

عبارة عن حفرةٍ تعبر بين الأعشاب.

كانت الحفرة، الأوسع قليلاً من حجم جونسون، مليئة بماءٍ راكد، وجدرانها الإسمنتية مغطاة بالطحالب؛ وكانت عناكب ماء وبعوض تسير على وجه الأعشاب الطحلبية.

ماء!

غطّس جونسون منقاره فيه.

كان يكفيه أن يثني رجلَيه وينحني إلى الأمام لكي يصل طرف منقاره إلى صفحة الماء.

أخذ منه جرعةً، ورفع رأسه وابتلعها.

سالَ الماء في حلقه. ونزل في المعدة التي كانت تطالب به.

غطّس منقاره ثانية في الماء. وشرب. وشرب. مراراً وتكراراً.

وعلى حين غرّة، نفد صبره، فقفز إلى الحفرة.

أحسّ بالألم في جناحه الذي جرحه الحيوان المتوحّش، ولكنّه

شرب وهو يطفو على سطح الماء بصعوبة. خفق بجناحَيه، ناثراً الرذاذ من حوله.

ماء!

إنّه ماء!

عبّ منه إلى أن انتفخ بطنه.

ثمّ خرج من الحفرة، ونظر من جديد حوله.

نظرت إليه الزرازير جاثمةً على شجيرةٍ.

كانت هناك أيضاً عصافير الدوري. وبين الأعشاب، لمح عنكبوت جورو ضخم.

تحت النسيم، كانت حزم العشب تهتزّ أحياناً على نحوٍ غريب، ولكنها لم تبدُ أنّها تُخفي طيراً ضخماً، ولا حيواناً متوحّشاً.

ربّما بوسعه البقاء هنا.

بعد أن ارتاح، أدار جونسون بصره نحو ماء الحفرة.

تصلّب متشنّجاً في مكانه.

رأى صورة طيرٍ أسود تنعكس على صفحته.

طيرٌ مجروحٌ في رأسه، ضعيفٌ وريشه متفرّقٌ.

لم يكن يُقارن في شيء مع شبح أمّه أو الطيرَين اللذين هاجماه في موقف السيارات.

ابتعد جونسون عن صورته المنعكسة، مع نعيقٍ.

63

في اليوم التالي، ومن ثمّ في اليوم الذي تلاه، تمركز يويتشي على الشرفة.

وظلّ هناك حتى هبوط الليل.

في اليوم الذي تلاه، والذي بعده، كان لا يزال هناك.

شاهد العديد من الغربان.

ولكن من النظرة الأولى، يرى أنّ جونسون لم يكن من بينها. كان حجم جميعها من حجم الغراب البالغ.

لكي يستطيع جونسون أن يعود، ربّما تكون هناك حاجة إلى مَعْلمٍ يتعرّفه؛ فوضع في الشرفة القفص الذي كان قد احتفظ به. وبناءً على طلبه، اشترت ريتسوكو بعض **التشيكوا**، التي فتّتها ووضعها على طبقٍ من الكرتون بجانب القفص.

ولكن جونسون لم يظهر ثانيةً.

عاد يويتشي إلى الداخل، تاركاً باب الشرفة مفتوحاً، وجلس من جديد أمام الأوراق ذات المربّعات المفروشة على الطاولة.

لم يكن موضوعه الإنشائي الذي بات عنوانه «جونسون الغراب» قد تقدّم كثيراً. كان يكتب كلّ يوم سطرَين أو ثلاثة أسطر، ويُمحيها فيما بعد.

لم يكن معلّمه يضغط عليه كثيراً لكي يُنهي كتابته. يسأله إن كان يكتب، فيُجيب الصبي بهيئة وقورة بأنّه قد محا ما كان قد كتبه. فيقتصر ردّ المعلّم على القول: «هذا جيّد. لا تيأس».

مرّ أسبوعٌ. ثمّ مرّ أسبوعان.

استمرّ يويتشي في القيام بالحراسة على الشرفة.

كانت الرياح قد أصبحت باردة، فاستبدل قميصه ذي الكمَّين القصيرَين بآخر ذي كمَّين طويلَين.

ولكنّه استمرّ في القيام بالحراسة.

64

لم يعد جونسون يُغادر الأرض البائرة خلف المصنع.

على الأقلّ، لم يكن يعاني، في هذا المكان، من العطش. وكان بوسعه أن ينام أيضاً.

أثناء الليل، كان يلجأ إلى الصندوق الرثّ، ملاذاً له. ويضع بطنه على أفرع وجذور الأعشاب، فيشعر بأنّه بخير. كان بوسعه لا أن يُريح جناحَيه فقط، بل رقبته ورجليه أيضاً.

رغم كلّ شيء، ظلّت مشكلة انعدام الطعام.

كان الجوع يعذّبه، وينهشه من الداخل صباحاً، وظهراً، ومساءً.

تعلّم سريعاً أن يقلّد الزرازير، ملتقطاً بمنقاره حشرات صغيرة وديدان الأرض. ولكنّ جسمه كان أكبر بكثير من أجسام الزرازير. وإذا كان هذا الغذاء يكفيها، فلم تكن معدته هو تحصل على حاجتها الضرورية.

كانت رقبة وجناحا صورته المنعكسة في الماء تنحف من يومٍ لآخر.

تأتي الطيور السوداء من نفس جنسه، التي تحطّ أحياناً في

الأرض البور، وتضربه بمنقارها ما أن تراه. وتنقضّ عليه في مجموعات مكوّنة من طيرَين أو ثلاثة لكي تعنّفه.

غرابٌ صغيرٌ هزيل، بالكاد يستطيع أن يدافع عن نفسه.

كان يبدو أنّ إساءة معاملته، مثل فريسة، تمنحهم جميعاً النشوة نفسها.

ثمّ إنّ هناك شيئاً آخر، عند جونسون، يُثير الطيور البالغة.

كان ذلك نعيقه.

في سجلٍ أجنبيٍّ للغربان. هناك قد ترسّخ صوته.

صيحاته تشبه النباح، حينما يتعرّض للهجوم، وتدوّي مثل لغة أجنبية في آذان أقرانه. كان له مظهر غراب، ولكن كما لو أنّ حيواناً آخر يسكنه.

كان صوته بدعة.

كان الآخرون يجهلون مروره على البشر والعيش بينهم. وجونسون من جهته، لم ينتبه إلى غرابة صوت نعيقه.

أو بالأحرى، لم يكن صوت نعيقه غريباً.

كان صوت نعيقه يستنسخ لغة مختلفة عن لغاتهم اختلافاً جوهرياً.

65

كانت السُّحب المتألّقة بأشعّة الشمس المائلة للغروب تطوف، مطرّزة بعروقٍ ذهبية، فوق الأرض البائرة.

منذ الصباح، جسم جونسون يرتعش بتشنّجاتٍ خفيفة.

تشوّشت رؤيته مرّات عديدة.

كان ذلك بكلّ تأكيد بسبب الجوع الذي يعتصره.

ذكريات العشّ، بعد ولادته مباشرةً.

ذكريات الصغير الذي غادرهم.

كان كاك قد ارتعش في المساء، وفي اليوم التالي، لم يعد يتحرّك.

كان على جونسون أن يأكل شيئاً.

يعرفُ ذلك. إلّا أنه كان عاجزاً.

بالطبع، لم يكن قد اكتفى بالبقاء متكوِّراً على نفسه في صندوقه الكرتوني، بل طار من الأرض المهجورة إلى بقعة مغطاة بالعشب، وحلّق فوق الأسطح المحيطة بها حتى وصل إلى الجادة الواسعة.

ولكن شقّ عليه أن يعثر على ما يملأ به معدته.

بدت حاويات القمامة، للوهلة الأولى، مغمورة بالطعام. ومع ذلك، وحتى مع تجاوز رقابة الغربان البالغة صاحبة هذه الأرض، لم يجد فيها طعاماً يُذكَر. وزاوية الوجبة الجاهزة التي كانت تظهر من الحاوية لم تكشف سوى عن علبة فارغة، وما كان ممكناً أن يلتقطه من خلال دسّ منقاره في كيس قمامة ظلّ محدوداً. في أفضل الحالات، بقايا صلصة لشرائح لحم مفرومة أو نتفٌ من ورق الملفوف.

مع مرور الوقت، فقدَ جونسون الرغبة في الطيران.

كان يعلم بأنّه يجب عليه أن يطير، ولكنّ جناحَيه ظلّا خاملَين.

وعيناه على السحب المذهّبة، عانى من الرجفان المستمرّ الذي يهزّ جسمه.

كان ذلك خياره الوحيد. فكّر في أن يذهب ليشرب من الحفرة، ولكنّه خمّن بأنّ أدنى حركة خاطئة، سوف تعرّضه لخطر أن ينقلب جانباً؛ فحتى ذلك بات صعباً بالنسبة إليه. أحسّ، حول منقاره، باختلاجاتٍ في وجهه الهزيل، مثل جلدٍ مجعّد.

وفي تلك اللحظة، ظهر غرابٌ بالغ.

كان جناحاه لونهما أسود داكن بحيث كانا يعكسان قليلاً من اللون الذهبي للسُّحب.

راقب جونسون للحظة، قبل أن يختفي خلف حُزَم العشب؛ ربّما ذهب لكي يشرب من الحفرة.

ثمّ ظهر من جديد. اقترب قافزاً على رجلَيه المتناسقتَين جيّداً كما كانت حال جونسون فيما مضى. وقف على بُعد قرابة مترٍ منه، وراح يتفحّصه.

تصلّب جونسون في مكانه: تُرى هل سيتعرّض لهجومٍ؟ لم يتحرّك الطير الآخر. كان جونسون يرتعش تحت أنظاره، ساكناً بلا حراك.

أطلق الطير نعيقاً.

«تعال!».

فهمَ جونسون الرسالة.

لم تعد لديه القوّة على الردّ؛ اكتفى بأن فتح جناحَيه باسترخاء.

قاق! قاق!

ردّد الغراب رسالته.

«هيّا، تعال!».

في ظلّ السحب المطرّزة باللون الذهبي، وعلى حين غرّةٍ، حاول أن يستأنف طيرانه.

قاق!

للمرّة الأولى منذ غادر يويتشي، أحسّ جونسون بأنّه قد التقى صديقاً.

مرتعشاً، أفرد جناحَيه. حاول أن ينطلق. ولكنّه لم يكن قادراً على الطيران.

جال الطير بهدوءٍ من حوله.

66

كان يويتشي قد قرّر أنّه سيكون اليوم الأخير.

لأنّه بدأ يجد نفسه مضحكاً.

وهذا ما قاله له أيضاً زملاؤه؛ وقد أخذ رأيهم بالحسبان.

وكانت ريتسوكو أيضاً قد كرّرت ذلك على مسامعه عدّة مرّات: عليه أن ينسى.

وبالتالي، قرّر أن يكون ذلك اليوم هو المرّة الأخيرة التي ينتظر فيها في الشرفة.

قبالة الشرفة التي تمركز فيها كلّ مساء لمدّة شهرٍ، اصطبغت السحب بألوان أشعة الشمس الآيلة إلى الغروب.

«جونسون، أين أنت؟».

أمعنَ يويتشي النظر في أشعّة الضوء المنسلّة من بين حواف السُّحب.

فكّر في نفسه: ربّما كان يطير هناك.

بالطبع، كان قد فتّشَ عبثاً السماء بنظره، إذ لم يلمح ظلّ طيرٍ.

ظلّ جامداً في مكانه إلى أن حلّ الليل.

ثمّ، عندما كاد الضوء يختفي تماماً، التفت نحو الصندوق الكرتوني الموضوع في الشرفة. سحقه بركلةٍ من قدمه. ورمى من شرفة الطابق الثالث الطبق الكرتوني وقِطَع التشيكوا التي كان يفتتها كلّ يوم.

وعاد بعد ذلك إلى الداخل وأغلق بعناية باب الشرفة من ورائه.

على الطاولة، كانت لا تزال ترقدُ الأوراق ذات المربّعات، التي بقيت هناك طوال الشهر. أمسك بقلم رصاصٍ، وشرع بالكتابة.

67

طار الطير البالغ ببطء على طول الجادة الواسعة.

بدا أنّه يُدرك أنّ جونسون، خائر القوى، يترك نفسه نهب الرياح. وفي كلّ مرّة بدا فيها رفيقه جاهزاً لأن يسقط مثل ورقةٍ، كان يرسم قوساً لكي يعود ويقف إلى جانبه. كان يُطمئنه على وجوده بالعينَين والصوت.

قاق!

أعلن: «قريباً».

ومع ذلك، الظلام قد ساد من حولهما. كان جونسون يرى على نحوٍ مضطرب. كان يبذل جهده لكي يتبع مرشده، ولكن شبحه كان

غير واضحٍ. ما لم يتغذَّ، سوف يلقى نفس مصير كاك، المرتعش في قاع العشّ. هذه الليلة.

لم يعد يحتمل.

كان من المستحيل أن يطير أكثر. سيسقط.

قاق!

«تعال!».

متشبّثاً بهذا الصوت، تركَ جونسون نفسه يتهاوى بالقرب من الطير الذي حطّ للتو. عاجزاً عن ثني جناحَيه، سقط منقلباً إلى الوراء، غير قادرٍ على التحكُّم باختلاجاته.

رأى أمامه العديد من الأشباح الداكنة التي التفتت نحوه. وجوهٌ حمراء، متدلية، مع زوائد معلّقة بمنقارها.

لم يكن جونسون يدري في أيّ مكان قد حطّ.

انقضّ عليه طيرٌ ذو نظرة حادّة، مهاجماً، وقد ضمّ رجلَيه. كانت عيناه تقولان: «انصرف من هنا!»، ولكن الطير الذي قاد جونسون تغلّب عليه دون صعوبة. بضربة منقارٍ واحدة. انقلبَ الطير الآخر على جنبه. وابتعدَ لمسافة وهو يخفق بجناحيه. تراجعَت الطيور الأخرى بدورها بحذر. قبلَت الطيور على مضض بجونسون ومرشده بينها. وعادت إلى انشغالاتها كما لو أنّ شيئاً لم يكن، فاتحة مناقيرها على وسعها.

كانت هناك جيفة حيوانٍ في المكان.

كانت جيفة حيوانٍ متوحّشٍ شبيهٍ بالذي هاجمَ جونسون بين شجيرات الساحة. قد انسحق، مثلما تشهد على ذلك الآثار التي تبدأ من ظهره وحتى رأسه.

قد نفق على رصيفٍ تعيسٍ قلّما يرتاده الناس، على طول الطريق الذي يعبر المنطقة الصناعية. كان ممدّداً هناك، وقد اتّسخ بطنه باللون الأحمر، وتناثرت أحشاؤه.

كانت الغربان تسير مسرعةً من حوله.

قاق!

راحَ الطير الذي قاد جونسون يحطّ على الهيكل برفّة رشيقةٍ من جناحَيه. وكان نعيقه، الموجّه إلى جونسون بوضوح، بمثابة دعوة له. علّقت الغربان الأخرى تحرُّكاتها.

لم يعد جونسون في حالةٍ تسمح له بالقفز على رجلَيه. تقدّم خطوةً بخطوة، مثل زاغٍ أسود.

كانت أحشاء الحيوان المتوحّش تحت أنظاره.

تضع الغربان مناقيرها فيها. تلتقط الأمعاء وتسحبها.

تذكّر جونسون قِطَع اللَّحم التي كانت أمّه تغذّيه بها.

تلك الزقّات التي كانت تجلبها له ولسارق.

والتي كانت تبثّ الدفء في جسمه.

وهذا ما كان يتمنّاه منقاره، وحلقه، وجناحاه.

تذكّر للحظة وجه يويتشي.

والغذاء على الطبق. ولكنّ هذه الذكرى أفلتت منه، وتلاشت.

كان قد غطّ رأسه في الهيكل لجيفة الحيوان.

التقط بمنقاره أول قطعة وقعت تحت نظره وانتزعها. ابتلعها دفعة واحدة. بجانبه، كان العديد من الغربان تحصر بين فكّي مناقيرها قطعة طويلة من الأمعاء التي تحاول انتزاعها من الجوف المعوي وهي ترفرف بأجنحتها. أسرعَ جونسون إليها، ووضع منقاره

فيها. انبجسَ الدم على رأسه ولطّخ جذعه وجناحَيه. فاضت شراهته، ولم يعد سوى منقارٍ.

قاق!

هاجمه جاره. وعندئذٍ -من أين وجد قواه؟- ردّ له جونسون ضربته. ثم أفرد جناحَيه لكي يجعله يهرب من المكان، والتهم اللَّحم المنزوع من الأحشاء. قطعة تلو قطعة، أحسّ بأنّه يستعيد قواه.

كان الطير الذي قاده إلى هنا يجثم على رأس الجيفة.

دسّ منقاره في أحد محجرَي العين، وضغط بكلّ وزنه لكي ينتزع منه نُسجاً.

كان جونسون في غاية الانفعال. بدأ جسمه يشعر بالدفء.

قاق!

جاثماً على بطن الحيوان، نعق.

كان صوته صوت غرابٍ بريّ.

68

كان يويتشي يُطفئ ويُشعل المصباح بالتناوب على الطاولة.

نظر لمرّاتٍ عديدة إلى السماء المظلمة على الجانب الآخر من زجاج النافذة.

مثبّتاً عينَيه على الأوراق ذات المربّعات، وصالباً ذراعَيه. كان قد كتب بضعة أسطر، مسحها في الحال. فقط فتات الممحاة كان يتجمّع على الطاولة.

شرع بالكتابة.

لقد قرّرتُ أن أنسى. لا أعتقد أنّ الغراب خانني. لأنّ والدتي قالت إنّه من الأفضل له أن ينسانا. ولكن، في الحقيقة، أشعر بأنني قد خُدِعتُ بعض الشيء.

حينما وصل إلى هذه العبارة، دعك فجأةً الورقة. جعلها كرة صغيرة ورماها في سلّة المهملات.

غمغم، وهو يُطلق تنهيدةً: «وداعاً، يا جونسون»، ثمّ غادر الطاولة لكي يجلس أمام التلفاز. نقرَ على جهاز التحكُّم: ظهر على الشاشة برنامجٌ ساخر لم يشاهده منذ فترة. تمدّدَ على الأرض، ونظرته مثبّتة على جهاز التلفاز.

قال لنفسه: «لقد مرّ وقتٌ طويل».

راوده الإحساس نفسه حينما عاد إلى المدرسة، بعد أسبوعٍ من التغيّب عن دروسه.

69

تقدّمَ الفصل وأظهرت الأشجار ألوانها الخريفية.

أصبحَ جونسون يجثم أكثر فأكثر على قمّة إحداها برفقة مرشده.

كان لهذا الطير ريشٌ رائع.

بادئ ذي بدء، قد توزّع ريشه منتظماً جدّاً. على جناحيه، بالطبع، ولكن أيضاً على رقبته وظهره، الذي يغطّيه الريش بأمواجٍ منظَّمة. وكانت لريشه أيضاً خاصيّة انعكاس ألوان قوس قزح، تحت بعض الزوايا. ريش الغراب يكون أسود اللون، بطبيعة الحال. ولكنّه سوادٌ صافٍ بحيث يعكس الضوء، مثل سطح موشورٍ. وكانت هذه

هي الحال عند الصديق الجديد لجونسون: عند كلّ حركة، كان ريشه يتلوّن بتلوينات جديدة.

كما أنّ جسمه كان ذا عضلات.

جناحاه المتناسقان، المنبسطان القويّان، يشقّان في خفقةٍ واحدة الهواء أكثر بكثير من جناحَي جونسون.

هذا وكان هو الآخر قد كَبُرَ. منذ الفترة التي أوشك فيها على أن يموت جوعاً، كان حجم جسمه قد تضاعفَ، بل ربّما كان قد زاد حجماً بثلاثة أضعاف. بقيت له ندبة صغيرة على الرأس، ولكنّ جناحَيه كانا في حالة مثالية للعمل. على الرغم من بعض الرِّيش المشوَّه الذي كان لا يزال ملحوظاً، كان الآن يمتلك ما يكفي من القوّة لكي يطير لمسافات بعيدة من دون صعوبة.

كان الطير وجونسون يتفقان بشكل جيّد.

في شارع مشجرٍ بأشجار الحور التي بدأت أوراقها بالاصفرار في انسجامٍ، كانا يقفان جناحاً إلى جناح.

كانا يتأمّلان معاً المارّة والسيارات من خلال أوراق الشجر. كان هذا الجوّ، وهذا المشهد، وهذه الرفقة محطّ ارتياحٍ بالنسبة إلى جونسون. وبدا أنّ الطير الآخر يتقاسم معه هذا الشعور. لم يتظاهر ولا مرّة واحدة بأنّه سينقره.

حينما كانا هكذا جاثمَين معاً، كان جونسون يرى فيه صورةً.

صورة شعاعٍ أخضر.

عند طلوع الشمس، كان يحدث أن ينبثق وميضٌ من الضوء الأخضر من الأُفُق، قبل أن تظهر الشمس بالضبط. كان الشعاع الأخضر يعبر السماء فوق المدينة، من بعيد.

رآه جونسون حينما استقرّ فصل الخريف تماماً، وأصبحت الريح أكثر برودةً.

إنّه حدسٌ ببداية.

هذا ما أيقظَ فيه هذا الوميضُ من الضوء، وما كان يشعر به أمام مرشده.

وبالتالي، أطلقَ عليه اسم شعاع أخضر.

كان جونسون يرى الكائنات التي لا اسم لها تبعاً للشعور المرتبِط بها. في ذهنه، كان هذا الطير، شعاع أخضر، نذير انبعاثٍ.

70

كان شعاع أخضر طيراً بالغاً، مكتملاً، يكبر جونسون بسنة أو ربّما سنتَين.

لا يزال طيرانه مفعماً بروح الشباب، ويتسلّى في السماء.

كانت الغربان في سنٍّ معيّن تكتفي بالطيران في خطٍّ مستقيمٍ بين الطعام والعشّ. وتدّخر كلّ جهدٍ غير ضروري.

بالنسبة إلى الغربان الصغيرة، كان الأمر مختلفاً تماماً.

فالطيران بالنسبة إليها نشاطٌ في حدّ ذاته، على قدم المساواة مع التغذية أو النوم. باختصار، لم يكن الطيران وسيلة، وإنّما غاية. رسمَ دوائر حول مدخنةٍ. التسابق من خلال التحليق على علوٍّ منخفضٍ جدّاً فوق الأسطح إلى حدّ ملامستها. كان هذا هو الطيران، وأيضاً طريقة للإحساس بسعادة الوجود، والعيش.

كان هذا الفرح يكمن في طيران شعاع أخضر.

بالنسبة إلى غرابٍ، كان يرتفع عالياً جدّاً في السماء.

يطير جونسون في أعقابه، ويرافقه في مغامراته المجنونة.

كان يحدث لهما أن يجدا نفسيهما يُقذفان من قبل العواصف التي تدور في جوف الغيوم الماطرة. فيفقدان توازنهما، وتعبث بهما فجأةً الاضطرابات الجويّة. ويطيران في الاتجاه المعاكس، مدفوعَين بزوبعة من الرياح. كان جونسون يجد نفسه مرهقاً من جرّاء ذلك، بينما كان شعاع أخضر يبدو مستمتعاً به.

حينما كان دخان مداخن المنطقة الصناعية يتراكم في طبقاتٍ في السماء، كان شعاع أخضر يرتفع أكثر في السماء قبل أن ينزل نحو الأسفل، ومن ثمّ يعاود الكرّة.

ما كان يحبّ أن يختبر نفسه فيها على نحوٍ خاص، هي الرياح المعاكسة. في الأيام التي تشتدّ فيها الرياح، يهبّ النسيم بعكس الرياح البحرية. فينقسم الهواء إلى طبقتَين، تتبع فيهما الرياح اتجاهات معاكسة. كان الطير يغطس، وفي اللحظة التي يبرز فيها، يُقذف به على بعد قرابة عشرة أمتار بهبّة ريحٍ رائعة. كان شعاع أخضر، الذي يرتمي فيها بسرورٍ، أكثر من شجاع: كان يهوى مغازلة الخطر.

خافَ جونسون كثيراً، في مناسبات عديدة. ولكنّه لم يشأ أن يفترق عن شعاع أخضر. فكان يرافقه دون كللٍ في الانقضاض على الرياح المعاكسة. كانت مكاناً لا يُغامر فيه أيّ غراب آخر. مساحةٌ للحرية. يترك جونسون جناحَيه يقودانه، وهو يحارب في الوقت ذاته الخوف.

ومع ذلك، لم يكونا يكرهان الأماكن التي تتجمّع فيها الغربان الأخرى.

كان لدى جونسون ميلٌ إلى الحفاظ على مسافةٍ من المجموعة، خشية من أن يُعامَل بقسوة. لكن كلّما كان جسمه ينمو أكثر، كان أقرانه يهاجمونه على نحوٍ أقل. بفضل حضور شعاع أخضر إلى جانبه، ولكن أيضاً، وخاصّة، لأن جونسون نفسه قد أصبح ضخماً.

تطوّر، شيئاً فشيئاً.

تقلّصت المسافة بينه وبين المجموعة؛ وشعر بأنّه أكثر ارتياحاً.

واختفت النبرة المتميّزة في نعيقه تدريجياً.

اعتادَ الطيران على أن يرتاحا في جادةٍ لأشجار الدردار اليابانية، حيث كانت الغربان فيها الأكثر عدداً.

كانت، من جهتَي دوّار المحطة، عبارة عن جادة طويلة تعبر القسم التجاري من المدينة وتمتدّ حتى تصل إلى الأحياء السكنية منها. وكانت محاطة على مدّ النظر بأشجار الدردار التي يتراوح ارتفاعها بين عشرة وعشرين متراً. كانت الغربان تلجأ غريزياً إلى هذه الأشجار التي تغطّي أغصانها وأوراقها قِمَمها من الطريق. كانت الغربان تجتمع عليها. وحشود البشر تمشي مسرعةً من تحتها، في حين كانت تولَدُ مستعمرةٌ أخرى فوقها: كانت هذه هي نقطة القوّة لجادة الدردار المضيافة هذه.

كان هناك مكانٌ آخر يجذب الغربان: البرج الأعلى في المدينة.

كان يبدو أنّ شعاع أخضر هو الآخر يجدُ له قوّة خاصّة.

71

البرج هو المبنى الذي يُطلق عليه البشر اسم مبنى البلدية.

وهو أكبر حجماً بكثير من المباني الأخرى.

عالٍ جدّاً بحيث عندما تركد الغيوم الماطرة منخفضة في السماء، تحجب نصفه العلوي.

كانت غربان جادة أشجار الدردار تحلّق على نحوٍ دائري في سربٍ من حوله لمرّتين في اليوم.

ولكنّها كانت تبقى على بُعد مسافة من المبنى. لم تكن تقترب منه كثيراً. كان ذلك اتفاقاً داخل المجموعة. بل كانت الغربان الصغيرة التي تلامس جدرانه تتعرّض لهجومٍ منظَّم. كانت تُطرَد تحت عاصفة من ضربات المخالب.

أثناء التحليق، تكون المسافة من الهدف مسألة أساسية.

وخاصّةً حينما يتعلق الأمر بالبرج.

كانت منطقة التحليق محدودة بحلقة يشكّل البرج مركزها. يتمّ الطيران دائرياً، لا قريباً جدّاً ولا بعيداً جدّاً من البرج، وعلى مسافةٍ متّسقة.

في الصباح، كانت الطيور تشكّل أسطولاً حقيقياً.

في نهاية فترة ما بعد الظهيرة أيضاً، يكون السرب كبيراً بما فيه الكفاية لينتزع تكشيرةً من البشر. كتيبة جيّدة التنظيم.

بالقرب من البرج، حتى شعاع أخضر كان مطيعاً للأوامر. يتبع طوفان الطيور. جونسون، من جهته، يطير في قلب السرب، وهو يفرد جناحيه في أعقاب شعاع أخضر.

كانت الغربان تنعق باتجاه مبنى البلدية.

في المرّة الأولى التي طار فيها حول المبنى، وهو يسمع هذه الصيحات، أحسّ جونسون بحنينٍ أشاع الدفء في جسمه. ثمّ أحسّ بأنّه ضائع.

مزّق نورٌ عتمةَ ذكرياته. وقد هزّ دويّ رعدٍ السماء المظلمة.

في تلك الليلة، كانت أمه قد أطلقت تلك الصرخة الطويلة والعميقة، المنبعثة من أحشائها.

باتجاه النور، والصخب، وقوّة العاصفة. أو مصدرها.

ومع ذلك، كانت بعض الغربان تُطلق الصرخة نفسها في سماءٍ صافية، قبالة برجٍ ينتصب بهدوء نحو السماء. كان جونسون مضطرباً. والكلمات التي حفظها فاقدة لمعانيها.

لماذا يُطلق رفاقه هذه الصرخة نحو البرج؟ وبمجرد انتهاء الخريف، في الأيام الأولى من فصل الشتاء، أدرك السبب بكل كيانه.

72

كان يوماً شديد الرياح، تهبّ الرياح الشمالية قويّةً منذ الصباح. رياحٌ باردة وحادّة على نحوٍ رهيب. كانت أشجار الدردار قد فقدت كلّ أوراقها، وتسدُّ سحبٌ بلونٍ رماديٍّ داكن مثل الطين أُفُق السماء.

في فترة ما بعد الظهيرة، لم تكن الرياح قد هدأت بعد، وهي

تهزّ أشجار الجادة. لم تعد أشجار الدردار العارية توفّر أيّ حماية. انتهت المجموعة بالتشتُّت، إذ طار كلّ غرابٍ بدوره.

«ماذا نفعل؟».

نظر جونسون، متوتراً، ومقذوفاً بفعل هبوب الرياح، إلى شعاع أخضر.

رفع رفيقه، هادئاً، طرفي جناحيه لكي يعرّضهما للرياح الشمالية.

كان جونسون في غاية القلق.

انكسر غصنٌ، تتطاير بفعل هبّة رياح.

اصطدم بجناحه بطقطقة حادة.

إنّها عاصفة شتوية.

هبطت الغيوم، التي بدت أنّها تزن أطناناً، شيئاً فشيئاً.

كانت سوداء داكنة مثل الحبر، وترتعد مثل الكائنات الحية.

لمع وميضٌ. ودوّى رعدٌ شديد بين الغيوم.

ذكّر ذلك جونسون بذاك اليوم الشهير.

برزت في ذاكرته الليلة التي أمضاها تحت جناح أمّه، في العشّ.

هذا الضوء. هذا الصخب.

هذه هي. العاصفة التي دمّرت أوراق شجرة أرز الهيمالايا.

شدّ مخالبه على نحوٍ أقوى. تقوقع على نفسه، متشبّثاً بالغصن.

«ماذا نفعل؟».

نظر من جديد إلى شعاع أخضر.

مزّق وميضٌ السماء. ودوّى ضجيج شديد.

بدا شعاع أخضر مستمتعاً، فاتحاً منقاره.

أمّا جونسون، فقد كان جاهزاً لأن يطير في غضون ثانية.

سجع شعاع أخضر: «انظر!».

تحوّل بطن الغيوم فجأةً إلى عددٍ لا يُحصى من النقاط البيضاء المتلألئة. رفرفت على نحوٍ منحنٍ، وأحياناً أفقياً.

كان جونسون شاهداً على هذه الرقصة البيضاء المجنونة للمرّة الأولى.

اختفت جادة أشجار الدردار تحت البياض. انهارت النقاط البيضاء، التي كانت تشكّل الآن شلالاً حقيقياً، فوقهما.

أدرك أنّهما سيتجمّدان.

ظهرت قوّة هائلة، كانت ستجمّد الريح، والمطر، وأغصان أشجار الدردار. وحتى الريش الأسود الذي يغطّي جناحَيه.

انبثق وميضُ ضوءٍ. خطّط السماء. هبّت عاصفةٌ، غمرت أشجار الدردار في زوبعة بياضٍ.

كانت هذه هي تماماً.

الصرخة التي أطلقتها أمّه في ذلك اليوم. كلماتها.

كانت توجد فوق الغيوم على وجه اليقين قوّة عليا تُشير إليها.

أو ربّما كانت حاضرة في كلّ ما يحيط بهم.

النقاط البيضاء، الرياح التي تهبّ، والغيوم المتموّجة القلقة. والقوّة التي جمّدت المطر.

أدرك جونسون كلّ هذا ليس بالعقل، وإنّما في جسده.

قاق!

أفرد شعاع أخضر جناحَيه.

«هيّا بنا!».

غاص في الزوبعة البيضاء.

اندفع جونسون في أعقابه.

73

منحت العاصفة الثلجية شكلاً للريح.

برقصتها البيضاء، كانت النُّدَف تكشف التركيبة المعقّدة للهواء.

انحرف جونسون وشعاع أخضر، وهما يخفقان بأجنحتهما.

اعتقدا بأنّهما يطيران في خطٍّ مستقيم، ومع ذلك، سارت الأسطح والعمارات تحت أنظارهما بشكلٍ منحرف.

«أين؟».

يا له من عالم غريب هذا العالم المدفون تحت البياض.

أصرّ شعاع أخضر على الطيران بين الغيوم المندفعة، ولم يفهم جونسون سبب ذلك.

إلى أين يحاول أن يذهب؟

قاق!

فجأةً، ظهر شبحان إلى يمينه، وثلاثة أشباح أخرى إلى يساره. يبدو أنّ طيوراً أخرى كانت تسير في إثرهما. أطلق أحدها صيحةً متحمّسة للغاية.

أبان صوته بوضوح عن حماسه. كان يطفح بالفرح.

قاق!

أمامه، ردّ شعاع أخضر على حبوره.

قاق!

كانت غربان أخرى تطير من تحتهما، يلسعها الثلج كالسياط، وتنعق بصوتٍ قويّ.

انفتح فجأة ممرٌّ من الرياح أوقفَ العاصفة لبرهةٍ.

بين الجدران البيضاء التي كانت تحيط بهما، ظهر ما يشبه شريطاً أسود.

شريط بحجم سحابةٍ.

شكّلت مجموعةٌ كبيرة من الغربان، بحجم عدّة مبانٍ مجتمعة، سرباً واسعاً.

والطيور التي غادرت جادة أشجار الدردار انضمت هي الأخرى إلى الشريط الأسود، على ما يبدو.

سوادٌ، وسوادٌ، ومزيدٌ من السواد.

دفقٌ أسود يشقّ البياض.

وما وراء الشريط الأسود المتحرّك، كان هناك البرج. تتخطّى قمّته الغيوم.

كان البرج ينتصب، مَلِكاً لكلّ المباني. وعاء النور الذي يخطّط السماء، غير آبهٍ بدويّ الرعد، وطيفه المَهِيب يمتدّ إلى الأعلى.

كان مركز العالم.

الدعامة النبيلة التي تربطُ السماء بالأرض.

كان جونسون مضطرباً. يطير بخفق الجناح، رافعاً عينَيه نحو البرج، مثل سواه من الغربان. كانت الغربان كلّها تطلق الصيحات

نفسها. صيحات احترامٍ وتبجيل. نحو ما كان يمثّله، وهو شيءٌ لا نهاية له.

هبّت عاصفةٌ جديدة.

تشتّت سرب الغربان في لحظةٍ.

لكنّها ظلّت تنعق، شاخصة أبصارها نحو البرج.

انزلقت السحب بكلّ هدوء، كاشفةً عن أعالي البرج.

ينتصب في قمّته خطٌّ مستقيم يخترق السماء.

استولى هاجسٌ على جونسون. هزّت شحنة كهربائية جناحَيه. أصبح الفضاء فجأةً مكهرباً.

لمع وميضٌ مبهرٌ للأبصار. خطّطَ السماء ونزل على البرج. ثمّ تضاعف منتشراً مثل الآلاف من جذور النباتات، قبل أن يتلاشى.

في عينَي جونسون، بدا الوميض بالأحرى منبعثاً من البرج. من جذوره التي تُشعّ نوراً على الكون.

هزّ رعدٌ الجوّ.

اهتزّ جسمه، وجناحاه، وعيناه، ومنقاره في انسجام.

ظلَّ جونسون صامتاً حيال ذلك. طارَ، مفتوح المنقار، مصطدماً برفيقه.

ما رأيناه للتوّ!

هيه، ما رأيناه للتوّ!

كان لا بدّ أن يقول له ذلك، أن يتقاسم معه إحساسه.

يا لها من قوّة!

ونحن هنا، مع هذا البرج.

نحن هنا، الآن!

شعاع أخضر!

غامزاً بعينَيه، وسط الثلج، نقلَ له جونسون حماسه.

كان شعاع أخضر يطير بجانبه، والحزم واضحٌ في نظرته.

«لقد فهمت. لقد فهمتك».

وهو ينظر إليهما بالتناوب، إلى البرج وإليه، ترك شعاع أخضر نفسه يُحمَل من قِبل الرياح القويّة.

74

بعد العاصفة الثلجية بقليل، في صباحٍ باردٍ جدّاً، في عزّ الشتاء، تعرّض جونسون لحادث حاسم ثانٍ.

كان يرسم حلقات حول البرج.

هل كان ذلك بسبب الرياح الجافّة التي تهبّ منذ ليلة أمس؟ من الجانب الآخر للسماء ذات الزرقة البرّاقة، قرب خطّ الأُفُق، ظهرت من بعيد سلسلة جبلية لم يكن قد رآها أبداً. كانت تنتصب، مهيبةً وأرجوانية، تحت أولى أشعّة الشمس.

إذا كان الكون هو ما يقدّم نفسه لأبصارنا، ففي ذلك اليوم، كان الكون شاسعاً.

من خلال التحليق ببطءٍ حول البرج، يطلّ الطير على العالم برمّته.

الكون كرةٌ جدرانها الحدباء محدودة بجبالٍ، ومدنٍ، وغابات. تهبّ فوقها الرياح وتعوم السحب.

نظر جونسون، المتعطِّش لمعرفة هذا العالم، إلى هذا البرج المَهِيب، بتركيزٍ أكبر ممّا كان معتاداً عليه.

وإذ. . .

في نهاية شريطٍ أرضيٍّ ضيّق، بالكاد يُرى بين المباني، لفت شيءٌ انتباهه.

صفٌّ من المباني من الشكل نفسه، كما لو أنّ الواحد منها ملتصقٌ بالآخر.

فتح جونسون، وهو منهمك في الطيران، منقاره.

بدت الجدران المصفرّة للمباني من بعيد.

وماذا لو. . .

وماذا لو كان ذلك المكان هو ما تمنّى كثيراً أن يعود إليه؟

المبنى الذي يوجد فيه الصندوق الكرتوني الذي حماه سابقاً؟

الطعام الموضوع على طبقٍ.

الطفل الذي أخذه بين ذراعَيه.

يويتشي!

عبَرَه ضياءٌ غير مرئي، من أسفل حتى رأس جناحيه.

يويتشي!

يويتشي!

مبتعداً عن البرج، أخذ جونسون يطير باتجاه المبنى.

شرع في انحدارٍ بطيء لكي يجتاز طبقةً من الهواء البارد ويحلّق فوق أسطح المنازل، مستعجلاً جناحَيه للوصول إلى المباني المصفوفة.

سوف يرى يويتشي!

تُرى ما الذي يفعله الصبي، في هذه اللحظة؟

وكما لو أنّ عينَيه كانتا تنظران عبر أنبوبٍ، لم تعودا تميّزان سوى هذا المبنى البعيد.

يويتشي!

فاجأ نفسه بإطلاق هذه الصرخة الفريدة. هذه الصرخة غير المفهومة من قبل أقرانه، والتي تسبّبت بهجومهم عليه.

محمولاً من الرياح، تفاجأ هو بنفسه بهذا الصوت الذي كان قد نسيه تقريباً.

75

حطّ على سطحٍ. يبرز أنبوبان معدنيان من خزّان مياهٍ مصبوغٍ بدهانٍ أزرق مقشّر. تشبّث بهما وتفحّص المنطقة المحيطة وهو يُدير رأسه يميناً ويساراً.

لم يكن مخطئاً. لقد سبق له أن رأى هذا الصفّ من المباني. كان يعرفه.

حدث ذلك عندما كان تحت حماية يويتشي، متكوّراً على نفسه بين ذراعَيه.

ولكنّه كان ضائعاً.

بين هذه المباني التي لها الشكل والحجم نفسهما، أين هي الشقّة التي تقاسمها مع يويتشي وريتسوكو؟

طار جونسون من مبنى إلى آخر. جثم على خزّان كلّ واحدٍ منها، حيث يتفحّص المناطق المحيطة، بحثاً عن الشقّة.

منحنياً رأسه، تفحّص كلّ شرفةٍ.

ما يبحث عنه، هو صندوقٌ مثقوبٌ بفتحاتٍ وطبق طعامٍ.

ولكنّه لم يجدهما في أيّ مكان.

وانتهى به الأمر إلى أن تساءلَ إن كان هذا هو المكان الذي عاش فيه سابقاً.

بادئ ذي بدء، لم يعد يعرف من أين انبثقت في داخله هذه الرغبة في رؤية يويتشي.

إنّ بشراً قد حموه. ولكنّ آخرين حاولوا أن يأسروه.

كان البشر يوحون له بمشاعرٍ متناقضة. الرغبة المتزامنة في الاقتراب منهم والفرار منهم.

سيطرت الحيرة على جونسون.

أفرد جناحَيه وضمّهما، متردِّداً. وأخيراً، وبعد أن احتار تماماً، ظلّ جامداً فوق خزّان، مثل تمثالٍ. بدا له أنّ أيّاً يكن الاتجاه الذي سوف يتّخذه في طيرانه، سوف يتوجّه نحو المجهول.

هبّت الرياح.

هبّت في رشقاتٍ متقطّعة.

حينما طار جونسون حتى وصل إلى هنا، كانت الرغبة في لقاء يويتشي قد منحته جناحَين، إذا جاز التعبير. أمّا الآن، فقد بات عاجزاً عن استئناف طيرانه.

ثمّ إنّ يويتشي كائن بشريّ. إنّها معضلة قاسية!

عيناه شاخصتان نحو صفّ المباني، لم يكن جونسون يتحرّك، بينما تجلده الرياح الشمالية كالسياط.

الشمس التي كانت في البداية منخفضة في السماء، وصلت إلى سمتها قبل أن تبدأ بالميلان نحو الغرب.

نزلَ جونسون مرّة واحدة خلف عمارةٍ لكي يشرب من المزراب.

وجد قفص حاوية ينتصب هناك، قريباً جدّاً.

ووجد علبة مشبّكة معلّقة في داخله، تحتوي على ما يشبه طعاماً.

للوهلة الأولى، بدا أنّه شيءٌ من اللَّحم المجفّف.

اقترب جونسون، وأصبح بالقرب من القفص تماماً.

ولكنّه توقّف.

شمّ رائحة البشر.

أولئك الذين حاولوا الإمساك به، قبل أن يُطلقه يويتشي في الأجواء. كانت رائحتهم لا تزال راسخة في العوارض المعدنية.

لمّا نظر من مسافةٍ أقرب، رأى أنّ شقّاً ضيّقاً قد فُتِحَ على الوجه العلوي للعلبة. فتحة كافية لأن ينسلّ منها غرابٌ من دون صعوبة.

هذا أيضاً بفعل الإنسان. إنّها يد الإنسان، حيلته، مكائده.

راقبَ القفص لبرهةٍ.

أصبحَت رغبته في رؤية يويتشي أكثر قوّة من ذي قبل.

بين العلبة التي تحت أنظاره والصندوق الكرتوني الذي كان يويتشي قد وضعه فيه، هناك فرقٌ أساسي.

ابتعد جونسون مع نعيقٍ.

76

كانت الشمس قد مالت أكثر حينما ظهر صبيٌّ.

بين عمارتَين.

نزل راكضاً في الممرّ البارد، والمعتم، معتمراً قبّعةً.

أفرد جونسون جناحَيه ومدّ رقبته.

هل كان هذا يويتشي؟

لم يعد يرى سواه.

عيل صبره، فحكّ نفسه مرّتين أو ثلاث برجله. كاد يطير، ولكنّه طوى جناحَيه وتكوّم على نفسه.

لم يكن متأكّداً، بسبب القبّعة. في اللَّحظة التي دار فيها الصبي في الممرّ، رفعَ عينَيه قليلاً نحو السماء. في تلك اللَّحظة، لمح جونسون الوجه الذي كان يعرفه.

كان يويتشي. لم يكن مخطئاً.

سجع بهدوء: «مرحباً!».

كان الطفل أطول قامةً بقليل ممّا كان عليه في ذاكرته.

في صدر جونسون، فقأت بعض الفقاعات.

فقاعاتٌ غير مرئية، من المستحيل الإمساك بها بالمنقار، والتي كانت تنفجر بهدوء.

أبقى عينَيه مثبّتَين على يويتشي.

كان يتأمّله، تاركاً رأسه فقط يتجاوز خزّان المياه.

توقّف الصبي أمام الدرج وجالَ ببصره على أنحاء المكان،

وعلى وجهه تعبيرٌ غريب. رفع قبّعته. كان حليق الرأس، كما كان من قبل.

ثمّ دلفَ إلى بهو الدرج.

77

توقّف يويتشي، وقد كبحه إحساسٌ غريب.

حدث ذلك عندما كان يجري في الممرّ، في اللّحظة التي مرّ فيها بين عمارتَين.

أحدٌ ما يراقبه.

شعرَ بذلك في كلّ كيانه.

جالَ ببصره على أنحاء المكان. لا أحد.

مذعوراً بعض الشيء، أحسَّ أنّ رعشةً باردة سرت في عَموده الفقري.

صعد الدرج حتى الطابق الثالث وأسرع في فتح الباب. وهو يخلع حذاءه، أخذ نَفَساً عميقاً. كانت هذه المرّة الأولى التي يشعر فيها بهذا الإحساس. تمنى لو أنّ أمّه تعود سريعاً إلى البيت.

78

عبثاً أبقى جونسون عينَيه شاخصتَين على الشرفة، إذ لم يظهر يويتشي.

كانت الشمس لا تزال تميلُ، والظلال تمتدّ، متحرّكةً.

جاثماً على خزّان المياه، تذكّر جونسون المرّة الأولى التي رفرف فيها بجناحَيه لكي يصعد إلى السماء، في نهاية بعد ظهيرة أحد الأيام. ذلك الطيران الذي أرهقه، إلى أن نسيَ طريق العودة منه.

اصطبغت المدينة والسماء شيئاً فشيئاً بوميضٍ برتقالي.

كانت كلّ المرّات التي حاول فيها أن يطير تأخذ مصدرها من تلك اللحظة، اللحظة التي غادر فيها ذراعَي يويتشي.

«مرحباً!»، سجع مرّة أخرى بصوتٍ خفيضٍ باتجاه الصبيّ الذي لم يظهر في الشرفة. وبعد ذلك، فتح منقاره.

هل كان عليه أن ينعق؟ بدا متردِّداً. سجع من أعماق حنجرته.

ثمّ طار، تاركاً نفسه طوع الرياح.

كانت بعض الخفقات الكسولة من الجناحَين كافية لكي ترفعه عالياً.

كان جناحاه مختلفَين عن جناحَيه اللذين طار بهما في المرّة الأولى، إذ كانا أكثر طولاً، وأكثر عرضاً.

حينما يفردهما، كانا يبلغان متراً.

كان لجونسون الآن هيئة غرابٍ ذي منقارٍ ضخمٍ وبالغ.

79

واعتباراً من ذلك اليوم، توسّعَ عالمه.

كان يغطّي كلّ يوم مسافات أطول.

في السابق، كان يطير خاصّة مع شعاع أخضر.

الآن ينطلق غالباً بمفرده.

كان يغادر جادة أشجار الدردار ويطير طالما يحملانه جناحاه. ثمّ يعود من الطريق نفسه. وكان الفضاء الذي يُفتح له بهذه الطريقة، في نطاقه، أوسع من فضاء شعاع أخضر الذي كان يحبّ الارتفاعات. كانت المدينة برمّتها الآن في متناول جناحَيه.

لم يكن يتوانى عن الطيران في الليل، أيضاً.

في الأيام التي كان ينتظر فيها مطوّلاً رؤية يويتشي يظهر في الشرفة، كان يعود إلى جادة أشجار الدردار مع غروب الشمس. في الشتاء، كان النور يزول بسرعة. ما أن تغيب الشمس، يحلّ الظلام في الحال. دون أن يرتعب، كان جونسون يشقّ الهواء بجناحَيه وسط العتمة. بل لم يكن في حاجة إلى النظر إلى أضواء المدينة لكي يعرف إلى أين يتوجّه وإلى أي ارتفاعٍ يطير.

80

إنّه الصباح الذي سار فيه في إثر ريتسوكو، حيث عاد إلى مكان ولادته.

نظر أوّلاً إلى يويتشي وهو يغادر إلى المدرسة. طائراً من سطح إلى سطح في المجمّع السكني، تذكّر الطريق الذي كان الصبي يسلكه، وحقيبته المدرسية على ظهره.

وبينما كان يتهيّأ ليتابعه إلى مسافةٍ أبعد، لمحَ ريتسوكو وهي على وشك أن تركب درّاجتها الهوائية.

لم يكن جونسون قد نسي أنّ ريتسوكو كانت شخصاً مهمّاً

بالنسبة إليه. تحرّك جناحاه. أرغمه الاستمرار في النظر إليها على أن يتابع الدراجة الهوائية التي تسير في الشارع. طارَ في إثرها، على مسافة قريبة من أسطح المنازل، فوق العمارات والأسلاك الكهربائية.

فجأةً، وقعَ تحت بصره مشهدٌ مألوف.

المثلّثات الحمراء لأسطح المصنع. العلب المستطيلة بصفوفها من الدوائر السوداء. الأشكال الصفراء التي كانت تسير ببطء بينها. وشجرة أرز الهيمالايا.

اختفت درّاجة ريتسوكو الهوائية عن رؤية جونسون.

لم يعد يرى سوى الشجرة المنتصبة أمام عينَيه. في صدره، انفجرت فقاعة.

جثم في البداية على سلكٍ كهربائي موازٍ لجدار سور المصنع، ثمّ على سطحٍ مثلّث الشكل.

كانت شجرة الأرز تسطع ببهاء في الهواء الجافّ للشتاء.

وفي كلّ هبّة رياح، تهتزّ إبَرها التي لا تُعدّ ولا تُحصى. إنّها الإبَر البرّاقة لذكرياته الأولى.

غادر السطح المثلّث لكي يقوم بجولةٍ حول الشجرة وهو يرسم منحنى بمسار طيرانه.

أراد أن يراه من مسافةٍ أقرب.

وحينئذٍ بالضبط، حينما وصل إلى خلف الشجرة، لاحظ شبحاً بجانب قمّتها. متوارياً بين الكثير من الإبَر، كان يقف غرابٌ عجوز متقوقعاً على نفسه.

كان يشبه الشبح الموصوف في ذكرياته.

ولكنّه كان أصغر حجماً منه بكثير.

في ذكريات جونسون، كان هذا الشبح ضخماً. إذ كان المنقار الذي يمدّ له قطع اللَّحم أضخم منه، كان متأكّداً من ذلك. حينما تهبّ العاصفة، ينبسط الجناحان اللذان يحميانه واسعَين بما فيه الكفاية لحجب الغيوم.

في حين أنّ الشبح هناك، الذابل تماماً...

هذا الظهر ذو الهيئة البائسة...

جثم جونسون على قمّة شجرة أرزٍ قريبة. غارزاً مخالبه في الخشب. شدّ عليه بقوّة.

استدار ظهر الطير المنتوف نصفياً بهدوء.

كان الريش على رأسه متفرّقاً.

منقاره، المهترئ، متشقّق عند قاعدته.

وحدقتا عينَيه مضطربتان.

هل كان يرى؟ هل كان أعمى؟

جناحاه المتقشّران يرتجفان.

هل كان ذلك ممكناً؟

تفحّص جونسون الغراب العجوز.

بادله الغراب المسنّ نظرته. ربّما كان يعاني من صعوبةٍ في التحديق فيه، لأنّه لم يكفّ عن تقطيب عينَيه.

«مرحباً!»، سجع جونسون بصوتٍ خفيضٍ.

أخفض الطير العجوز رأسه ونقر إبَر غصنٍ مجاور.

لم يشح جونسون ببصره عنه. لفظَ الغراب العجوز الإبَر.

تناثرت متطايرةً، محمولةً على الريح. نظر الطير إليها؛ سجع بهدوء، فاتحاً بعض الشيء منقاره المتشقّق.

ماذا كان يفعل؟ لم يكن جونسون يفهم.

ظلّ على مسافةٍ منه، يراقبه.

من جديد، التقطَ الغراب العجوز بعض الإبَر التي عاد ولفظها في الهواء.

كان جونسون حائراً.

هل كان الطير الذي أمامه هو حقّاً الطير الذي كان قد ضمّه تحت جناحه سابقاً؟

ظلّ الغراب العجوز، وهو ينظر إليه من زاوية عينه، يُسقط الإبَر دون كللٍ أو ملل.

لماذا كان يكرِّر هذه الحركة؟ كان الجواب يفوق فهم جونسون.

في اللحظة نفسها، أسفل شجرة الأرز، ارتفعَت أصواتٌ بشرية.

لم تكن غريبة عليه. إنّها أصوات العمّال، وقد سمعها مراراً وهو في العشّ. أشاحَ جونسون للحظةٍ ببصره عن الطير العجوز لكي ينظر إلى الرجال الجالسين أمام السياج النباتي.

«مرحباً!»، نعقَ لكي يلفت انتباههم.

ثمّ عاد وركّز نظرته على الغراب العجوز.

توقّف هذا الأخير عن نقر الإبَر. تفحّصَ جونسون بحدقتَي عينَيه المضطربتَين.

تذمّر بصوتٍ خفيض: «لا تقترب!».

تفاجأ جونسون، وتراجع خطوةً على غصنه.

كرّر الغراب المسنّ: «لا تقترب!».

تراجع جونسون خطوة أخرى.

صرخ الغراب العجوز بصوتٍ أجشّ: «انصرف!».

ثمّ غضّن عينيه، كما لو أنّ رؤية جونسون أثارت اشمئزازه. وبعد ذلك، شرع ينتزع إبَر الشجرة ويُطلقها في الهواء، مكرِّراً الحركة نفسها إلى ما لا نهاية.

انتظر جونسون، باسطاً جناحَيه، أن يتحدّث إليه الطير من جديد.

ولكن عبثاً.

حينها، قفزَ من غصنه، كما لو أنّه يدع نفسه يسقط في الفراغ. ثمّ، في بضع خفقات من جناحَيه، صعدَ من جديد نحو السماء.

طافَ ببطء حول شجرة الأرز.

على قمّة الشجرة، بقيَ الطير العجوز ساكناً بلا حَراك. ظلٌّ أسود صغير جدّاً خلف إبَر الشجرة، متقوقعاً على نفسه. لم يُظهِر أنّه ينظر إلى جونسون.

دار جونسون مرّة أخرى حول الشجرة، ثمّ حلّق حتى وصل إلى الأسطح المثلّثة. دون نعيقٍ، تركَ المصنع خلفه.

81

كان جونسون يذهب غالباً لرؤية يويتشي. وريتسوكو أيضاً.

بالطريقة نفسها التي يختلف فيها لون السماء وهبوب الريح، يختلف مزاج البشر. لم يكن قطّ ثابتاً.

كان يويتشي يعود من المدرسة عابثاً بصخب مع زملائه، ولكنه كان يعود أيضاً في بعض الأحيان وحده، وهو يقذف بقدمه حصاة تارةً، أو يتوقّف ساكناً في الممرّ بين العمارات، تارة أخرى.

كانت تقلّبات مزاج ريتسوكو مختلفة.

حينما يراها وهو جاثمٌ على خزّان ماء أو فوق أسلاك كهربائية، نادراً ما كانت تقود درّاجتها بحماسة. تُثقلُ عادةً على كتفيها غيمةٌ لا تزال غير مرئية، كما لو أنّها غيمة قيد التشكُّل، ولكنّها مع ذلك ثقيلة، منذرةً بعاصفةٍ ثلجية.

وحينما تلمح يويتشي أمام العمارة، يتغيّر حالها، ولكن من الأمام فقط. كان جونسون، الذي يراقبها بتركيز، يعرفُ ذلك. كانت ريتسوكو تُظهِرُ وجهاً مبتسماً، مرتاحاً. ولكن من الخلف، كان الأمر مختلفاً. إذ تُثقِلُ الغيمة على كتفَيها باستمرار.

كانت التقلّبات الأكثر حدّةً تظهر عند عودتها من العمل.

في بعض الأحيان، تعود وهي تقود درّاجتها الهوائية بطيشٍ، وكيس المتجر وحقيبة يدها المليئين في السلة الأمامية للدرّاجة.

منحَ وجهها، في تلك الأيام، جونسون انطباعاً غريباً.

يشغلها شيءٌ ما.

شيءٌ ما يُلقي بظلاله على ملامح وجهها. ولكن في الوقت ذاته كان هناك اندفاعٌ في داخلها، مثل الغربان التي تهاجم أقرانها. ثمّ كانت تلتفت دون توقُّف إلى الوراء، كما لو أنّها تهرب من شيءٍ ما. كانت تلتفتُ مرّاتٍ عديدة، دون أن تتوقّف عن الدوس على دوّاستَي درّاجتها الهوائية.

تُرى كيف كانت الحالة الذهنية للمخلوق الذي تحت أنظاره؟

في بعض الأحيان، كان جونسون ينجح في تخمين ذلك، عابراً الحاجز بين الجنسَين.

كانت ريتسوكو تبدو له مفتقرة إلى التوازن، أكثر من يويتشي بكثير.

من جهة أخرى، كان جونسون نفسه يشعر في بعض الأحيان أنّه مُعدَم، محروم من مكانٍ يحطّ فيه.

على سبيل المثال، ما هي المسافة التي ينبغي الاحتفاظ بها قبالة يويتشي وريتسوكو، اللذين كان يتمنّى أن يستمرّ في رؤيتهما؟

إذا كان لا يستطيع لا أن يقترب منهما ولا أن ينظر إليهما وجهاً لوجه، فهذا أيضاً بسبب مشاعره المختلطة حيال البشر.

بعد زياراته إلى شجرة أرز الهيمالايا، كان يصعب عليه أن يطير على نحوٍ مستقيم.

كانت أفكاره تعود دائماً إلى الغراب العجوز الكامن في أعلى الشجرة.

بين الغربان التي أصبحت بالغة، لا تعود هناك روابط الدم. لكنّ الذكريات تبقى. ربّما بسبب الظروف الاستثنائية التي اضطرّ لأن يعيش فيها، كانت لدى جونسون ذاكرة أكثر نموّاً من أغلبية أقرانه.

كان يفكّر. لقد كان ذلك الغراب من دون أدنى شكّ الغراب الذي كان جناحاه الواسعان قد حمياه.

وبالتالي، بعد مضي بعض الوقت، راودته الرغبة في أن يطير إلى شجرة الأرز. أن يذهب ليرى ما الذي حلّ به.

كان الطير العجوز لا يزال يتصرّف بالطريقة نفسها.

كان ينتزع إبَر شجرة الأرز ويلفظها نثاراً في الهواء. وينظر إليها وهي تسقط مدوّمةً، بحدقتَي عينَيه المضطربتَين. ثمّ يعيد الكرّة. في المرات النادرة التي يفتح فيها منقاره، كان ذلك لكي ينهر جونسون: «لا تقترب!».

ويبتعد هذا الأخير دون ضجّة.

بعد أن يطير لبرهةٍ بصمت، يطلق نعيقاً في الفراغ.

82

كان جونسون غراباً مضطرباً.

هذا، مثلاً، ما حدث له ذات ليلة حيث كانت الرياح تهبّ بقوّة.

كانت الزوابع تهدِّد بتحطيم أغصان أشجار الدردار.

تلك التي يُطلق عليها البشر العواصف الأولى للربيع، في مطلع الفصل الجديد.

بسبب الريح المدوّمة، كانت غربان شارع أشجار الدردار منهكة.

ولتلك الحالة سببها. متشبّثة بأغصان الأشجار، اضطرّت أن تكافح طوال النهار لكي تحافظ على توازنها. إذ يكفي أن تختلّ درجة اتّجاه أجنحتها لبضعة مليمترات حتى تذهب في غمضة عين. وقد وجدت أعدادٌ كبيرة منها نفسها مقذوفةً، دون أن تحظى بالوقت لتنعق. حتى شعاع أخضر، وهو إلى جانب جونسون، بدا أنّه يعاني.

حينما هدأت الرياح، كان جونسون منهكاً، فتهاوى أسفل

الشجرة. كان ريشه مجعّداً بالكامل ويعاني من إرهاقٍ رهيبٍ في العضلات. وقد أصابته الهزّات بالدوار.

ولكن في تلك الليلة، طار.

طار في سماءٍ سوداء حالكة لا نهاية لها.

83

سوادٌ، وسوادٌ، ومزيدٌ من السواد.

طار جونسون بخفق الجناحَين.

سوادٌ، وسوادٌ، ودائماً سواد.

واصلَ الطيران، حتى الإنهاك.

حتى...

أين كان؟

حينما ظهر من بين هذه السماء ذات السواد الموحّد، وقعت تحت نظره جادة أشجار الدردار الغارقة في العتمة. أجالَ ببصره على أنحاء المكان.

رأى نجمتَين مضيئتَين في الغرب. لم يكن مخطئاً، كان الليل على وشك أن ينجلي. وقريباً سوف يستيقظ أقرانه.

ولكن، أين كان يتواجد حتى الآن؟

كان شعاع أخضر حاضراً، إلى جانبه، نائماً ملء جفونه.

ترك جونسون نفسه يتهاوى من الشجرة دون صخب وطار على علوٍّ منخفض حتى وصل إلى ساحة المحطّة، حيث حطّ. كانت بعض المصابيح تُضيء ماء الحوض تحت النافورة.

إلى أين ذهب؟

أرعبه التفكير في ذلك.

استبدَّ القلق به، كما لو أنّ كلّ شيء معرّضٌ لأن يزول. تصلّبت رقبته.

حطّ على حافّة الحوض، ومخالبه متشبِّثة بشدّة، ونظر من حوله.

كان مدخل المحطّة لا يزال غارقاً في العتمة، والشارع المؤدّي إلى الأرصفة أشبه بفمٍ فاغرٍ. تمتدّ على طول جدران المبنى صناديق كرتونية يتقوقع تحتها بشرٌ يرتدون خرقاً.

عدا عن أغصان أشجار الدردار المكسورة الجاثمة على الأرض، كانت الساحة تقدّم وجهها المعتاد لما قبل الفجر.

ومع ذلك، ظلّ خائفاً.

كان متأكّداً من أنّه قد طار في سواد دامس. عالمٌ من الظلمات التامّة.

ولكن زال كلّ شيء.

نظر جونسون إلى صورته المنعكسة في الماء.

هل هناك هكذا ظلمات هنا في الأسفل؟ ولماذا انقشعت هكذا فجأةً؟ كان العالم الذي خفق فيه بجناحَيه يائساً ذا سواد مطلق. لم يكن بوسع السماء المعتمة نفسها أن تنافسه. فراغٌ مطلق، السواد المتجسِّد.

عبّ جونسون جرعة من ماء الحوض ورفع عينَيه نحو السماء فوق المحطّة. وجد أن النجوم تكاد تكون غير مرئية. بعد أن هدأت

عاصفة الربيع، توقّف الهواء فجأةً عن الهبوب. وخمدت أدخنة المنطقة الصناعية.

فكّر جونسون في هذه السماء التي بدأت تشحب، وفي السواد المطلق الذي خبره لتوّه.

هل كان الاثنان مرتبطَين؟

هل كان للعالم الذي تحت أنظاره نهاية أيضاً؟

مثل السماء المعتمة، ألم يكن سوى شيءٍ عابرٍ، من شأنه أن يتطاير فجأة؟

سطح ماء الحوض، الذي تكدّر من جرّاء سقوط حشرةً. حتى هذا الماء المرتعش كان يدفع باتجاهه قلقاً لا يوصَف.

84

حلّ الربيع.

حطّمت الرياح الجنوبية القويّة الأغصان المتيبّسة وكنّست الغربان الهزيلة. في المقابل، حمل الربيع هواءً لطيفاً بكميات كبيرة. وغطّى ببراعم صغيرة خضراء أشجار الدردار والصفصاف.

فقدت حلكة ظلام السماء كثافتها، مصطبغةً ببقعٍ من الأزرق اللازوردي. حينما هدأت الرياح، تشكّلت طبقة رقيقة من السُّحب. وفي هذا الفصل أيضاً يبدأ سماع زقزقات القُبّرات، حادّةً كما لو أنّها تسعى إلى بلوغ السماء.

ولكي يذهب إلى رؤية يويتشي وريتسوكو، والغراب العجوز على شجرة الأرز خاصّته، طار جونسون فوق مجموعة من الأسطح.

وفوق تلك الأسطح، لمح التحليق الثابت للقبّرات. كانت تغزو خافقة بأجنحتها الصغيرة بسرعةٍ جنونية، شبيهةً بنقاطٍ صغيرة في السماء. منبهراً بطاقتها الحيوية، حامَ فوق الأراضي البُور.

أيّ قوّة لها! تساءل في نفسه عمّ تعبّر عنه هذه القوّة. لقد ولّدت في داخله إلهاماً ورغبةً شبيهةً بالتي أحسّ بها عندما كان يطير حول البرج.

لكنّه أحسّ جيّداً بأنّه لا يزال يحتفظ بقلقه.

طار من جديد عدّة مرّات في هذه السماء السوداء الحالكة. في هذا العالم الذي يتبخّر دون أن يترك أثراً.

كان كلّ شيء سيزول. بما فيه هو...

هل كانت السماء الظلماء وحدها هي التي تحملُ إليه هذه الأفكار؟

قال جونسون في نفسه: كلا.

كانت هناك أيضاً الذكرى التي عاشها في طفولته، في العشّ.

الصورة المأساوية لأخويه كاك وسارق.

توقّفت الحياة حينذاك في لحظةٍ.

الجناحان اللذان حمياه بكثيرٍ من القوّة شاخا ولم يعودا سوى ظلٍّ لنفسيهما.

وبما أنّ لون السماء يتغيّر تبعاً لفصول السنة، كان عليه هو أيضاً أن يسلك هذا السبيل.

لم يكن هذا الحدس يغادره.

خفق جونسون بضعفٍ بجناحَيه الكبيرَين. ومع أنّ الفصل كان

ربيعاً، حيث تحمل كلّ تلوينة من اللون الأخضر ذرّةً من النور، إلّا أن جناحَيه كانا يفتقران إلى القوّة.

85

حينما ضَعُفَ بهذا الشكل، كان شعاع أخضر الوحيد الذي أراد أن يقف إلى جانبه جناحاً بجناح، في أعلى شجرة الدردار.

تفحّصه شعاع أخضر. تفحّصه من كلّ الجهات، أماماً، وجانباً، ومن الأعلى، دون أن يشيح ببصره عنه.

ومن ثمّ فتح منقاره قليلاً وسجع بصوتٍ خفيضٍ، من أعماق حلقه. ومن ثمّ استقرّ إلى جانبه.

قبل أن يضع جناحَه على جناحه، تفرّس في جونسون عن كثب. كاد منقاراهما يتلامسان.

قاق.

«لماذا؟».

ثمّ نظر إليه مرّة أخرى.

بادله جونسون نظرته.

العينان في العينَين، تبادلا مشاعرهما.

«هل تعتقد بأننا سوف نزول؟».

طرح جونسون السؤال نابعاً من كلّ مخاوفه.

فالتمعت عينا شعاع أخضر بشكلٍ أقوى.

«أنا هنا».

ثمّ، تشابك جناحاهما.

86

بريق أولى نبتات الهندباء بين العشب اليابس، وطيران أولى الفراشات البيضاء للسنة.

شجّع الهواء اللطيف القادم من الجنوب الحيوانات على الحركة، متسرّباً إلى كلّ مساماتها، وريشها، ومخالبها.

عاد يويتشي أيضاً من المدرسة في قميصٍ رياضي، وسترته في يده وحقيبته المدرسية على ظهره.

بعد أن رآه يعود، متربّصاً في ظلّ خزّان المياه، للمرّة الأولى في حياته، سرق جونسون علّاقةً.

لم يفهم ما الذي دفعه للقيام بهذه الحركة.

ببساطة، بينما كان ينظر إلى الشرفات المتسلسلة تحت أنظاره، لاحظ وجود علّاقة بيضاء اللون معلّقة إلى حبل غسيل. كانت علّاقة بسيطة جدّاً، من سلكٍ معدني. ما كاد يسجّل الصورة في ذهنه، حتى رفرف بجناحَيه.

أمام الشرفة التي كانٰ يُمعن النظر فيها، حام لبرهةٍ. وتفحّص الأنحاء بعناية، متأكّداً من أنّه لا وجود لكائنٍ بشري. أحسّ بحرارةٍ في أعماقه. حطّ على حافة الشرفة. واختبأ خلف أصيصٍ للزهور. لقد قرّر أن يسرق العلّاقة، ولكنه لم يكن يعرف كيف يستولي عليها.

مضموم الرجلَين، تموضعَ في قفزةٍ تحت حبل الغسيل. ثمّ رفرف بلطف بجناحيه لكي يصبح على مستوى العلّاقة. أمسك

بمنقاره بشدّة بالقسم الذي كان يُشكّل السلك المعدني فيه زاويةً حادّة، ورفرف بجناحَيه بكلّ قواه.

أفلتت منه العلّاقة محدثةً صوتاً مزعجاً.

لم تنجح العملية. ظلّت العلّاقة معلّقة بحبل الغسيل. ربّما يكون من العبث أن يخفق بجناحَيه غاضباً، إذ لن ينجح في انتزاع العلّاقة من الحبل.

ما العمل؟

حطّ من جديد على الشرفة. تفحّص ذهنياً شكل العلّاقة.

خطرت له فكرةٌ.

طار على نحوٍ عَمودي، وبقوّة الجناحَين، راح يضرب بظهره على العلّاقة التي انفكّت بسهولة عن الحبل وسقطت على الأرض.

التقطها بمنقاره.

ضغط ثقلها على رقبته، ولكنّه اندفع، لا مبالياً بالصعوبة. طار من الشرفة، وخفق بجناحَيه لكي يرتفع في السماء سريعاً. فوق الأسطح، واصلَ الارتقاء في السماء الربيعية ذات الألوان المضيئة. ومن ثمّ، انطلقَ في خطٍّ مستقيم باتجاه جادة أشجار الدردار.

شقّت العلّاقة البيضاء الهواء محدثةً صفيراً.

اهتزَّ منقاره في انسجامٍ.

للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، أحسَّ جونسون بالارتياح.

87

حينما وصل إلى شجرتهما، كان شعاع أخضر في انتظاره.

حامَ جونسون لبرهةٍ في الأجواء والعلّاقة بين فكّي منقاره.

كان على وشك أن يُرخي فكّيه ويترك غنيمته تسقط أرضاً.

لأنّ شعاع أخضر كان قد سبقه إلى أغصان شجرة الدردار المغطّاة بالبراعم الناعمة.

وجدَ هناك علّاقة زرقاء.

ولسببٍ غامض، بدر من الطيرَين السلوك نفسه في اللحظة نفسها.

وضع جونسون بدقّة العلّاقة البيضاء فوق الزرقاء. جاثماً على غصنٍ مجاور، شبّكهما مع بعضهما بمنقاره. وجمعهما ببعضهما من خلال خطّافهما المدوّر، الذي كان يربطهما إلى حبل الغسيل.

كان شعاع أخضر ينظر إليه وهو يسجع من أعماق حلقه.

بطبيعة الحال، كان جونسون يعلم أنّه مُراقَب.

وكان يستمدّ من ذلك فخراً لا يوصَف.

اقترب شعاع أخضر، وقد بدا ممازحاً. رفرف بجناحَيه، وسجع ولامسَ بمخالبه ظهر جونسون الذي كان منهمكاً بتجميع العلّاقتين.

أفرد جونسون جناحيه نحو الأعلى وطار.

كما لو أنّ رياح الجنوب تهبّ في صدره.

انفجر عددٌ لا يُحصى من الفقاعات البرّاقة.

كان طافحاً بالفرح، بفرحٍ مختلفٍ عن فرح يوم العاصفة الثلجية، عندما كان شاهداً على معجزة البرج.

كانت السماء المضيئة مُلكاً لهما.

الرياح، وأشجار الدردار، وهذا الشارع الطويل: كان كلّ شيء موجوداً من أجلهما.

تلاشى الخوف من الزوال الذي آلمه كثيراً.

كان شعاع أخضر إلى جانبه. الحياة في متناول الجناحَين، والعينان في العينَين.

يا لها من معجزة!

رسمَ جونسون، مدفوعاً برياح الجنوب، حلقاتٍ. طار شعاع أخضر بالقرب منه تماماً.

معاً، كانا يحومان دونما هوادة.

ثمّ حطّا معاً على قمّة الشجرة. والتهما بعضهما بالعيون.

وتلامس طرفا منقاريهما.

فتحا منقاريهما شيئاً فشيئاً، وتركاهما يتشابكان.

لم يملّا من ذلك.

التقى المنقاران. تشابكا ببعضهما. عضّا على بعضهما.

لم يكن لا يملّان من ذلك فحسب، بل كان شعورٌ عارمٌ يصعد في داخلهما.

أدرك جونسون في قرارة نفسه ما الذي كان قد أفلت منه حتى هذا اليوم.

نحن اثنان في هذا العالم.

أنا. وأنت.

شعاع أخضر، هل كنت تعلم ذلك؟

88

في تلك الليلة، ارتدى القمر وشاحه الربيعي.

تحت الغيوم، كانت جادة أشجار الدردار باهتة. ولكنّ القمر لم يكن يختفي بالفعل أبداً.

في أعلى الشجرة، محميَين بأوراقها، كان جونسون وشعاع أخضر يبقيان أجنحتهما متشابكة.

كانت لدى جونسون رغبة في أن يذهب إلى أبعد من هذا.

سجعَ بلطف.

سجع شعاع أخضر ردّاً عليه.

اقترن إحساس جونسون، البرّاق تحت ضوء القمر، بأطراف جسده.

سعى إلى الذوبان في وميض مبهر.

إلى ضمّ شعاع أخضر، إلى الضياع بين ريشه.

رفرف بجناحَيه. لبرهة قصيرة، خُلِقَ فراغٌ بينهما. مدّ شعاع أخضر منقاره، كما لو أنّه أراد أن يحتجّ. لمّا فتح منقاره، غرس جونسون منقاره فيه من دون تردّد.

ثمّ امتطاه.

صعد على ظهر شعاع أخضر، وباعد بين رجليه، وحكّ جسمه بجسمه.

كان إحساسه، من أعمق أعماق جمجمته وحتى نهاية مخالبه، ينبض في داخله.

لبرهةٍ، دخل القمر المتّشح في حقل رؤيته.

ترنّح إحساسه.

ذاب في شعاع أخضر.

الذي تهيّأ لاستقباله، منبسط الجناحَين.

انفتح جسده لإحساس جونسون، ولكن أيضاً لبراعم أشجار الدردار المرتعشة، لأشعّة ضوء القمر التي كانت تقطع الظلال، للريح... لكلّ شيء.

في خفقٍ لطيفٍ للجناحين، نزل جونسون عن ظهر شعاع أخضر.

لقد تركَ علامته. همست له غريزته بذلك.

في هذا العالم المعرّض للزوال في أيّ لحظة، وضع علامته. تماماً مثل شعاع أخضر. على نحوٍ طبيعي كما لو أنّ الأمر يتعلّق بالطيران، بالتنفُّس، بالنظر، بالوجود، كانا قد دوّنا حياتيهما.

ابتعدت السُّحب وشعّ ضوء القمر بكلّ أشعّته.

انكشفت جادة أشجار الدردار بأدقّ تفاصيلها. على العديد من الأغصان، كانت طيورٌ تتزاوج.

89

هذه هي الطريقة التي تقاربَ بها الغربان في موسم الحبّ.

كانت رياح الجنوب قد حملت لها الإحساس وأنجبت إلى العالم الذكور والإناث، الذين كانوا حتى الآن موجودين بلا تمييز.

كانت الأزواج تتعاون في بناء أعشاشها، حيث يقترب موسم التكاثر بخطواتٍ كبيرة.

لم تكن الغربان من ذوات المناقير الكبيرة تبني أعشاشها إلّا باستخدام الأغصان.

ولكن هنا، في المنطقة الحضرية، لم تكن تستطيع الحصول عليها بما فيه الكفاية. وبالتالي، مثل جونسون وشعاع أخضر، كانت تعود إلى شجرتها وعلّاقة بين مناقيرها.

إنّ الغريزة التي تقود خياراتها المادية حادّة للغاية.

عدا العلّاقات، كان بعضها يجلب أسلاكاً كهربائية، وحبالاً رفيعة أو أنابيبَ مطّاطية. كل ما بوسعه أن يُفيد. وهي تجمع الموادّ الطبيعية والاصطناعية، كانت تصنع أعشاشاً مقاومة لسوء الأحوال الجوية.

كان جونسون يقوم كلّ يوم بعشرات رحلات الذهاب والإياب بين المدينة وقمّة الشجرة.

ويجلب على الدوام شيئاً ما بين فكَّي منقاره.

وشعاع أخضر كذلك.

ولكن شيئاً فشيئاً، باتت تقضي المزيد من الوقت في العشّ.

تأخذ مكانها في وسط العشّ، وتقوم بترتيب تشابك العلّاقات والأغصان.

تقودهما ذاكرة مبعثرة نحو الشكل المثالي للعشّ.

تُرى كيف كان العشّ الذي وِلِدا فيه وأمضيا فيه فصلاً إلى أن استطاعا الطيران منه؟

حتى جونسون، الذي كانت طفولته قصيرة، يتذكّر ذلك.

سوف تشهد حيواتٌ جديدة النور.

سيكون على عشّهما أن يلبّي شرطَين: أن يكون واسعاً بما فيه الكفاية لكي يربّيا فيه صغارهما ويناما إلى جانبهم، وأن يكون متيناً بما فيه الكفاية لكي يقاوم عاصفة مفاجئة، دون أن ينهار.

لم يعد لدى جونسون الوقت لكي يخشى الزوال.

من الفجر حتى الغسق، كان يجوب السماء، بحثاً عن الموادّ الضرورية ونقلها.

90

تقدّمَ الفصل أكثر؛ وكانت الرياح الجنوبية تجرُّ الآن رطوبةً تثقلُ أجنحتهما.

وتتلبّدُ سحبٌ بلونٍ ورديٍّ شاحب مثل منارات عاكسة لأشعّة الشمس، محوِّلة السماء إلى بحرٍ من الضياء.

وتنمو الأوراق التي أعلنت ظهورها على أشجار الدردار بلمح البصر.

تحجبُ أوراق الشجر الكثيفة الرؤية من الشارع.

أصبح عشّ جونسون وشعاع أخضر جاهزاً.

كان مبنياً على شجرة دردارٍ ضخمة، بعيدة قليلاً عن ساحة المحطّة. على مفرق غصنٍ عالٍ، مصنوع من علّاقات متشابكة بشدّة.

وضعت شعاع أخضر البيض سريعاً.

كان ذلك ذات صباحٍ يشهد رذاذاً خفيفاً.

في ذلك اليوم، سجعت منذ الفجر لكي تُخبر جونسون بالتغيير الذي يقترب.

تلقّى الرسالة، مفتوح المنقار، ثمّ غادر لكي يلتقط شيئاً من الطعام، من حاوية إلى أخرى.

متقوقعة على نفسها، كانت شعاع أخضر تُبقي عينَيها مغمضتَين.

لم تُظهر اهتمامها بغنيمته.

وضع عبثاً الطعام بالقرب من منقارها، إذ لم تلمسه.

«هل أنتِ بخير؟».

«نعم».

أدرك أنّ الأمرَ كان وشيكاً. أحسّ بأنّ الأُفُق سوف ينفتح أمامه. استبدّ به ذعرٌ مثير.

لم يكن يمكث في المكان. كان يطير مصرّاً على أن يجلب الطعام، في حين كانت شعاع أخضر فاقدة للشهية. بل كان يسرق الطعام، من خلال انتزاعه بالقوّة من مناقير غربانٍ أخرى.

حدث ذلك بعد العديد من رحلات الذهاب والإياب.

كان جاثماً على حافّة العشّ عندما أفردت شعاع أخضر بهدوء جناحيها.

رفعت جفونها ونظرت إليه محدّقةً بثبات في عينَيه.

ثمّ، مفتوحة المنقار، انتصبت على رجلَيها.

ارتفع بطنها.

كانت ترقد بين بطنها والعشّ.

ثلاث بيضات، إجمالاً.

واحدة بلونٍ أخضر خفيف، وأخرى بلونٍ رماديّ فاتح، وثالثة بلونٍ بنيٍّ شاحب.

ثلاث بيضات ملوّنة تلويناً خفيفاً، أشبه بلوحة مائية تتناثر عليها نقاطٌ سوداء هنا وهناك.

سجع جونسون، قائلاً: «مرحباً!» قبل أن يفتح منقاره لكي يعضعض منقار شعاع أخضر.

ومضَ بريقُ انشراحٍ في حدقتَي عينَيه.

وضع عينَيه على البيض في اللَّحظة نفسها التي انبثق فيها شعاعٌ شمسي من بين سحابتَين.

كانت قطرات المطر التي بلّلت لتوّها أوراق أشجار الدردار تتناثر على شكلِ فيضٍ من قوس قُزح.

91

تكفّل جونسون بجلب الطعام.

كانت شعاع أخضر تمضي أيامها في حضانة البيض، راقدة في العشّ.

كانت تعاني من آلامٍ في ظهرها ورجلَيها لكثرة البقاء ساكنةً بلا حركة، في الوضعية ذاتها. من وقتٍ لآخر، كانت تنهض لتبسط جناحَيها، بعيداً عن البيض بعض الشيء. ومن ثمّ تحرّكها بمنقارها. ثمّ تعود وترقد عليها لكي تدفئها.

وكان جونسون يراها فقط خلال هذه اللحظات الوجيزة.

كان يتفحّصها، كما لو أنّه منوَّمٌ مغناطيسياً.

ثلاث بيضات.
تتألّق بألف تلوينةٍ حسب الضوء.
تميل تارةً نحو الأزرق، وتارةً أخرى نحو الأخضر.
كان جونسون يحفظ في ذاكرته كلّ هذه التلوينات.

92

وحينما اقترب غرابٌ مجهول من العشّ نعقت شعاع أخضر بصوتٍ قوي.

عموماً، كان الأمر يتعلّق بذكَرٍ، ولكن كان يحدث أن تأتي أنثى بلا شريك وتتسكّع وتحاول التسلُّل إلى العشّ.

إن الاثنين خطيران.

فالذكور الذين يخفقون في العثور على الغذاء لإناثهم، يستبدّ بهم اليأس، فيهاجمون في بعض الأحيان أعشاشاً أخرى. وتكفي لحظة واحدة من الإهمال لكي يتسبّب الطير بفقدان بيوضه.

والإناث اللواتي يكنّ لوحدهنّ لا يقللن إثارةً للخوف. فإذا ظللن محرومات من العشّ، يأكلن بيوض الأخريات.

كانت شعاع أخضر تُضاعف من درجة اليقظة. لم تكن تدع أيّ شبحٍ سوى شبح جونسون يقترب من قمّة الشجرة.

وكان هذا المشهد يذكّر جونسون بالعشّ الذي على شجرة أرز الهيمالايا.

كانت ذات الجناح الكبير، التي حمته وربّته، هي الأخرى قد أظهرت يقظةً شديدة.

ولكن بما أنّ رفيقها كان غائباً في غالب الأحيان، كانت تضطرّ إلى أن تذهب في البحث عن الطعام.

وحينها الشبح البنيّ الذي هاجمهما قد استغلَّ ذلك لكي يقطّع أوصال سارق.

وبالتالي، لم يكن من الوارد أن تطير شعاع أخضر بحثاً عن الطعام.

لقد انبثق في صدر جونسون حزمٌ جديد، في أعقاب موسم التزاوج.

93

مضى عشرون يوماً وعشرون ليلة بالتمام والكمال على ظهور البيض.

كان الفجر يقترب.

إنّه الموعد الذي تميل فيه كوكبة صليب الجنوب إلى الغرب، في حين تميل السماء إلى البياض في جهة الشرق.

انتصبَت شعاع أخضر على رجلَيها، بحيث أفسحت مجالاً بين بطنها والبيض.

«الآن».

بعينَين مفتوحتَين واسعاً، وجّهت ضربات بمنقارها إلى جونسون الذي كان لا يزال نائماً.

لم تترك له أيّ مجالٍ للشكّ.

«الآن».

هزّ جونسون رأسه وحدّق فيها هو الآخر.

أدركَ في الحال.

«الآن؟».

«الآن!».

من قمّة واحدة من البيضات، برز منقارٌ لا يزال أرفع من طرف علّاقةٍ من سلكٍ معدني.

كسر قشرة البيضة كما لو أنّه يرقص، بضربات خفيفة ثابتة.

أفردَ جونسون جناحَيه ليحميه من برودة الليل. خطرت له الحركة بصورةٍ غريزية.

تمدّدت البيضة كما لو أنّها تحت ضغطٍ داخلي، وتحرّكت بفواصل منتظمة.

انشقّت القشرة وانفتحت.

بعد المنقار، ظهرت كتلة لحمية صغيرة بلونٍ أحمرٍ مائلٍ إلى السواد. وبرز رأسٌ مغطّى بمادة لزجة، ثاقباً جدران القشرة.

راقب جونسون، مذهولاً، البيضة وهي تنكسر.

وكانت شعاع أخضر، التي مالت أحياناً إلى التدخّل، ترعى بعينَيها تطوّر الفرخ، ممتنعةً عن مساعدته.

انفلقت القشرة وظهر جناحان غير مكتملَي النمو. كانت عينا الفرخ لا تزالان مغمضتين.

أصدر تغريدةً ضعيفة.

لم تكن التغريدة سوى عطسة خفيفة، ولكنّه كان يتنفّس.

«مرحباً!».

ألصق جونسون منقاره بلطف بالفرخ الخارج بوسائله الخاصّة من قشرة البيضة.

فوجئ الفرخ الذي كان لا يزال مغمض العينَين، وارتعشَ بكامل جسمه.

تناثرَ السائل الذي كان يغطيه في كلّ الاتجاهات.

إنّه في حالة جيّدة.

كانت هذه أوّل فكرة راودت جونسون.

في قاع العشّ، بذلَ الفرخ جهده لكي يبسط جناحَيه. كانت جمجمته الصغيرة جدّاً والمبلّلة تماماً تعكس الأشعّة البرتقالية للشمس المشرقة.

94

في صباح ذلك اليوم، فقسَت البيضات الثلاث. رأت ثلاثة فراخ النور.

دبّت الحياة في العشّ فجأةً.

على الرغم من أعيُنها التي لا تزال مغمضة، كانت الفراخ تحبّ التململ، وتتحرّك دون توقّف. كانت شعاع أخضر ترشدها بطرف منقارها، بلطفٍ وحنان، لكي تجنّبها الوقوع بين العلّاقات وتبقيها تحت بطنها.

كانت قد وضعت البيضات ورقدت فوقها لوقتٍ طويل. وكان ذلك منهكاً. ولكن عملها لم يكن قد انتهى. عليها الآن أن تقوم

بضعف ما قامت به. كانت مستنفرة على الدوام، لا تأخذ ثانية واحدة من الراحة.

حينما يعود جونسون إلى العشّ، محمّلاً بالغذاء، تُلقي عليه نظرة امتنان. ولكنّها كانت مجرّد نظرة، إذ كانت تصبّ جُلَّ اهتمامها على الفراخ.

لم تكن الأمور مختلفة بالنسبة إلى جونسون.

كان يكرّس نفسه للبحث عن الغذاء، وحينما يجثم على حافّة العشّ، يلتفت نحو الفراخ. ولكنّ أسبابه ربّما لم تكن بالضبط نفس أسباب شعاع أخضر.

كانت الفراخ المتململة قد تركت انطباعاً قويّاً لديه. وأثّرت فيه بطريقة معقّدة، صعبة التحديد.

لم يكن هذا شعوراً يسير بخطٍّ مستقيمٍ، مثله عندما يرى طعاماً. كان بالأحرى أشبه بنبتة متسلّقة على جدارٍ، يمتزج فيه فرحٌ غامر مع قلقٍ عميق. كان يعاني صعوبة في تقبُّل التغيّرات الجذرية التي أصابت العشّ.

أحد الفراخ، الذي كان رأسه لا يزال مغطّى بالمادة المخاطية، سقط منقلباً إلى الخلف.

قبل أن يحظى بفرصة مساعدته في النهوض، هبَّ منقار شعاع أخضر إلى نجدته.

لم يستطع جونسون أن يفعل شيئاً.

كان الأمر دائماً كذلك. لم يكن قد استطاع بعد أن يلمس لمرّة واحدة الكتل اللحمية الصغيرة الثلاث المحمرّة.

هل كان له هذا المظهر نفسه هو أيضاً؟

هل هذه الأشياء الرخوة والهزيلة سوف تشبهه ذات يوم؟

هل سيكون قادراً على أن يجابه الشبح البنّي الرهيب لحمايتها؟

عندما استعادت أنفاسها، طالبت شعاع أخضر من خلال النظر: «طعام».

أفردَ جونسون جناحَيه، وغادر العشّ.

95

بعد أن جلب ما يكفي من الطعام، طار مرّة أخرى في السماء التي كانت تميل إلى العتمة.

شعر بأنّ عليه أن يذهب إلى هناك.

ملتزماً بترتيبات العشّ، لم يكن لديه الوقت الكافي لكي يذهب ويرسم دوائر بطيرانه. كان قد رأى فقط من بعيد، شبحه الماثل. شبح برجهم، الذي كانت قمّته تختبئ بين السحب في الأيام الماطرة، ويمتدّ، في أيام الصحو، شاهقاً نحو السماء كما لو أنّه يسندها.

كلّ يوم، كان يفكّر في وصاله. لكنّ إعلان التغييرات التي عاشها أرغمه على أن ينتظر حتى هذا اليوم.

طار جونسون بخطٍّ مستقيمٍ مباشر باتجاهه. تحت أشعّة الشمس المائلة إلى الغروب، كان البرج يشعّ مبهراً الأبصار.

كلّما كان يقترب، خافقاً بجناحَيه، كان يشعر، كما هو الحال دوماً، بأنّ خوفاً مشوباً بالتبجيل ينتابه.

يا له من حضورٍ مهيب أن ترى هذه العظمة، هذه الأصالة، هذه المعجزة.

يا لها من قوّة تنبعث منه!

في قمّته، كان الخطّ المستقيم الذي يبعث ضوءاً ودمدمةً يخترق السماء، اليوم أيضاً.

على أطراف البرج، كانت عاصفة أجنحة الغربان تشكّل سحابةً سوداء.

هذه هي طريقتها في الوجود. إنّها تتواجد في هذا العالم مرتبطةً بالسماء.

حينما تصبح قادرة على الطيران حتى تصل إلى هذا المكان بأجنحتها، سوف تحسّ هذه الحيوات الجديدة الثلاث، هي الأخرى، بهذا الإحساس نفسه.

هناك السماء، ثمّ نحن.

لقد صنعتنا السماء، وهي برهان وجودنا.

منخرطاً وسط سرب من آلاف الطيور، رفعَ جونسون نظرة منبهرة نحو البرج.

اقترب أكثر ما يمكنه، حتى بلغ حافة المنطقة التي يُسمَح بالطيران فيها.

وفي تلك اللحظة سجّلت عيناه المعلومة.

كان البرج مؤلّفاً من عددٍ لا حصر له من الانعكاسات.

خلف هذا الضوء، يوجد بشرٌ يتحرّكون في نشاطٍ. تماماً كما لو أنّ حشداً من البشر يختبئ في الداخل.

كان ذلك مستحيلاً.

هزّ رأسه لكي يتخلّص من هذا السراب.

قاق!

في البعيد، أطلق غرابٌ صيحة تحذير، مثبّتاً عينيه عليه.

«لا تقترب كثيراً!».

صدمته نظرته الثاقبة.

أسرع جونسون إلى اتّخاذ مكانه من جديد وسط السرب. ثمّ نظر من جديد إلى البرج.

مكتسياً بوارق الشمس المائلة إلى الغروب، كان البرج قد غدا دعامةً تتلألأ بنورٍ ساطع.

ولكي يهدأ، عبّر عمّا قاده إلى هنا.

أيها البرج!

لقد تلقّيتُ ثلاث حيوات دفعة واحدة.

اجعل هذه الحيوات طويلة.

وأن تنمو إلى أن تصبح قادرة على المجيء إلى هنا بأجنحتها هي.

ومن أجل هذا، سوف أشقّ كلّ الليالي العاصفة.

أطلق حينها صرخةً طويلةً وعميقةً، منبعثةً من أحشائه. لقد قلّد -تُرى هل نجح في ذلك؟- صوت أمّه، تلك الكلمات التي أطلقتها ذات ليلة عاصفة.

إنّها صرخة نابعة من أعماق القلب، تُعادل، بالنسبة إلى كائنٍ بشري، صلاةً.

96

كان أناسٌ ينظرون، فاغري الأفواه، إلى سرب الغربان المحلّقة.

تحت الشرفة ذات المناظر الخلّابة، في أعلى مبنى البلدية، يوجد مكتب رئيس البلدية.

غمغمَ، متنهّداً:

- هذا غير مقبول... اليوم، زاد الأمر عن حدّه.

كان يقف خلفه مدير العلاقات العامّة في البلدية ورئيس قسم حماية البيئة.

سأل:

- من أين يمكنهم أن يأتوا؟

أجابَ مدير العلاقات العامّة سريعاً:

- من بعيد.

- إنّها المهزلة نفسها كلّ صباح، وكلّ مساء. هل تفعلون شيئاً حقاً؟

ابتعد رئيس البلدية عن النافذة مع نظرة مواربة نحو رئيس قسم حماية البيئة.

- لقد ازداد عدد الغربان التي تمَّ اصطيادها. ووضعنا أكثر من خمسمئة فخٍّ عبر البلدة.

- في هذه الحالة، كان ينبغي أن يكون عددها أقلّ ممّا هو عليه الآن، أليس كذلك؟ ولكنني أشعر أنّ عددها يتزايد على نحوٍ مضطرد. يظنّ المرء نفسه في مملكة الطيور البرية.

نقرَ رئيس البلدية بإصبعه على زجاج النافذة.

علّقَ رئيس القسم مع شعورٍ بالأسى:

- إنّها تتغذّى على القمامة. لو أنّ جميع السكّان أخرجوا حاوياتهم كما يجب...

ردّ مدير العلاقات العامّة:

- هذا ليس عذراً. إنّكم تحمّلون السكّان مسؤولية فشلكم. في الوضع الراهن للأمور، لا تتقدّم مكافحة الغربان. لا بدَّ من وضع استراتيجية جديدة، إذا ما أردنا إبادتها.

ردَّ رئيس القسم بنبرة حادّة:

- الإبادة، الإبادة، ليس لديك سوى هذه الكلمة في فمك. هل فعلاً من المنطقي القضاء على أحد أنواع الكائنات الحيّة التي نتقاسم معها المدينة؟

ابتسم له رئيس البلدية ابتسامة ساخرة.

- كلّا. على أيّ حال، من المستحيل القضاء عليها قضاءً مبرماً. الغربان طيورٌ مقاوِمة. ولهذا السبب لم أعد أتحدّث عن القضاء عليها. ولكنني أودّ أن يكون عددها أقلّ. أن يقلّ عددها بمعدّل عشر مرّات، هل سيكون هذا ممكناً؟

أقرّ المدير وهو يهزّ رأسه بحركة نشيطة، ويُبقي عينَيه شاخصتَين على رئيس البلدية:

- نعم، إنّ العُشر سيكون مناسباً.

أومأ رئيس قسم حماية البيئة برأسه، وقد بدت عليه خيبة الأمل.

قال رئيس البلدية:

- هذا لأنّه كنّا نراها قليلة العدد في السابق إلى درجة أنّه تمّ تخصيصها بأغنية. أنا أيضاً كنتُ أحبّ الغربان عندما كنتُ طفلاً. كنتُ أشعر بأننا نفهم بعضنا بعضاً. ولكن الآن...

استدار من جديد نحو النافذة.

- انظروا إلى هذا السرب. هل تعتقدون أن أفكاراً ريفية تنتاب السكّان حينما يرونها؟ لا يُخفى عليكم أنّنا نرزح تحت الشكاوى. إنّها قذرة، وتثير الخوف، وتحمل أمراضاً؛ فلماذا تبقى البلدية مكتوفة الأيدي، ولا تفعل شيئاً؟ هذا ما يُقال لنا.

بدأ رئيس القسم، وقد بدا غاضباً بعض الشيء:

- في هذا الصدد... أنا أيضاً، لدي ما أقوله. جميع الحيوانات تُبدي عدوانية عندما نقترب كثيراً من أعشاشها خلال موسم تزاوجها. ثمّ إنّ هناك أيضاً شائعات خاطئة. غالباً ما نسمع الحديث عن أناسٍ هوجموا من قبل غرابٍ طائر، ولكنّ الغربان غير قادرة على تسديد ضرباتٍ بمناقيرها وهي في حالة طيران. لا يمكن لها سوى أن تخيف خصومها بضرباتٍ من مخالبها. ثمّ إنّها بشكلٍ عام جبانة...

تدخّل مدير العلاقات العامّة:

- ومع ذلك، نحن نعرف حالات تعرّض فيها أناسٌ لجروح.

لم يقل رئيس البلدية شيئاً، بل صالب ذراعيه، وظلّ واقفاً أمام النافذة.

استأنفَ رئيس القسم، مذهولاً، كلامه بنبرة أكثر حدّةً:

- يمكن لهذا أن يحدث. ولكنني لم أسمع أبداً بجروحٍ خطيرة أحدثها غرابٌ، ولا بضربات منقارٍ قاتلة. أمّا حالات عضّ مميتة من

كلبٍ، فهذه حصلت، وبكثرة. ومع ذلك، نكره الغربان، ولكم أن تفهموا! والأمر نفسه ينطبقُ على الأمراض. حينما ماتت غربان أميركية بمرض حمّى النيل، أجّجت وسائل الإعلام خوف الناس من خلال إشاعة الاعتقاد بأنّها هي من كانت تنشر الفيروس. في حين أننا نعلم حقّ المعرفة أنّ البعوض هو الذي ينقل هذا الفيروس. أمّا الغربان، فهي لم تكن تمتلك بكلّ بساطة الدفاعات المناعية الضرورية لكي تقاوم الفيروس.

- بالتأكيد. ولكن هناك أيضاً أنفلونزا الطيور...

قاطع رئيس البلدية كلامه. أضاف، وقد توسّع منخراه:

- هل تعمل لصالح السكّان؟ أم لصالح الغربان؟

- لصالح السكّان، بالطبع.

- في هذه الحالة، افعل ما بوسعك بحيث تكون هناك أعدادٌ أقلّ من الغربان. بحيث يكون هناك فقط ما يكفي لإرضاء السكّان. سوف يكون هذا أفضل للجميع، بمن فيهم الغربان.

قرّب وجهه من زجاج النافذة وأشار بإصبعه إلى سرب الطيور.

- يظنّ المرء نفسه في فيلم رعبٍ قديم. ألا يمكن أن تكون لنا بدلاً عنها لقالق أو بجعات، أعني طيوراً جميلة للنظر وحاملة للبشائر؟ بدل هذه الأنواع من طيور الشُّؤم السوداء؟

- اعذرني، ولكنّ المظهر...

- نعم، أعلم أنّ هذا نوعٌ من التمييز. هذا خطأ. باختصار... السيّد المدير؟

متجاهلاً رئيس قسم حماية البيئة، التفت رئيس البلدية نحو مدير

العلاقات العامّة، والذي استغلّ ذلك لكي يقدّم بيادقه مع انحناءة بسيطة:

- لنُطلق حملة جديدة لمكافحة الغربان، السيّد رئيس البلدية. إنّ قسم حماية البيئة سوف يفكّر معنا في سبيل إيجاد أفضل مقاربة.

هزّ رئيس القسم برأسه، غير متأثّرٍ، وأفرج مدير العلاقات العامة عن ابتسامة متكلّفة.

- رسالة فعّالة، سيكون هذا مفيداً.

- وما معنى هذا؟

- أن تؤدّي إدارة على نحوٍ سليم عملها، يرى الجميع هذا طبيعياً. مثل القيام بالأعمال المنزلية، يمكن للمرء أن يقتل نفسه في المهمّة، ولا يعير أحدٌ انتباهاً لذلك. العمل جاحد. ولكنّ إبادة الغربان، فهذا فعّال.

ذكّر رئيس البلدية:

- ولكن كلّا، نحن لا نتحدّث عن إبادتها، بل فقط تخفيض عددها.

- نعم، والنتائج سوف تكون بادية للعيان. وسوف يمنحك هذا صورة رئيس بلدية فعّال.

- دعونا لا نبالغ في شيء. لا أريد أن أفعل أيّ شيء يتناقض مع أمنيات السكّان. أنا لستُ مؤيّداً للقيام بمذبحة. لقد أخبرتكما بذلك، كنتُ أحبّ الغربان، سابقاً. باختصار، اهتمّا بكلّ هذا أنتما الاثنان.

حرّك يده كما لو أنّه يمنحهما إذن الانصراف.

- آه، بالمناسبة!

اليد التي كان يحرّكها تجمّدت بلا حراك.

أضاف:

- إذا أردنا أن نضرب بقوّة، فالآن هو الوقت المناسب. ألم يخبرنا قسم البيئة، ذات يوم، بأنّ موسم التكاثر هو الأكثر ملاءمةً؟

- بالتأكيد...

- أين تكون الأعشاش أكثر عدداً؟ إنّه أمرٌ مؤسف بالنسبة إليها، ولكن سيكون عليها أن تزول.

- في جادة أشجار الدردار المؤدّية إلى المحطّة، من دون شكّ.

قاطعه رئيس البلدية:

- لم أعد أرغب في رؤية عشٍّ واحدٍ منها، مفهوم؟ أنا أعتمد عليك.

انحنى رئيس قسم حماية البيئة بلا حماس.

97

ومثلما كان مظهر الفراخ يتطوّر يوماً بعد آخر، كانت مشاعر جونسون اتجاهها تتغيّر يومياً. بالنسبة إليه، كان هذا اكتشافاً.

حينما ظهرت خارجةً من قشرة البيض المتكسّرة، انتابه هيجانٌ كما لو أنّ ثقباً قد انفتح في السماء.

قال في نفسه إنّه، من أجلها، سوف يقضي نهاره في البحث عن الطعام، شاعراً قوّة جديدة في أجنحته. وفي الوقت ذاته، كان يتساءل في نفسه إن كانت هذه الكتل اللحمية المحمرّة سوف تشبهه فعلاً ذات يوم. بات بعض الريش يبزغ فوق أجسامها.

ولكن حينما فتحت عيونها، انقلب كلّ شيء رأساً على عقب مرّة أخرى.

كانت حدقات عيونها تتلألأ مثل أجنحة خنافس صغيرة. تنظر الفراخ الثلاثة إليه، ومناقيرها مفتوحة على آخرها تاركة قيعان حلوقها مرئية. إذا خطا جونسون خطوة في اتجاهٍ، كانت تدير رؤوسها بالاتجاه نفسه. وإذا ما رفرف بجناحَيه، كانت تقرّ بإيماءةٍ من رؤوسها.

كانت كلّ حركة من حركاتها تبثّ فيه شحنات كهربائية خفيفة.

مع رعشةٍ، كان يتساءل عمّا يحدث له.

ينتابه إحساسٌ أنعم من أوراق شجر الدردار التي تخشخش في بُرك الشمس، وأكثر حيوية من حركة الحشرات الصغيرة على سطح أوراق الشجر. كان إحساساً من الإثارة يتعذّر التحكُّم به، خفيفاً جدّاً.

حينما كانت الشمس الغاربة تغلّفُ أشجار الدردار، تصطبغ أطراف كلّ ورقة من أوراقها بلون ذهبي للحظات وجيزة. وكانت الفراخ الثلاثة تلمع بالنور نفسه.

هو أيضاً كان هنا، مرتبطاً بهذه التلوينات المذهّبة.

انتابته الرغبة في إطلاق تلك الصرخة الشهيرة التي تنبثق من أحشائه.

في اتجاه القوة العليا، في السماء من فوقه. القوة اللامتناهية المرتبطة بالبرج.

رغب في أن يصرخ بكلّ ما في داخله.

ولكن فكرة أخرى عبرت ذهنه.

حينما كانت الأوراق ترتعش، كانت بُرك النور تتلاشى.

وحينما ينظر إلى فراخه الثلاثة، يشعر أحياناً بأنّه يُمسَكُ من حلقه، مذعوراً. لم يكن يستطيع الامتناع عن مسّها بطرف منقاره.

كان لمسها يؤكّد وجودها.

ومع ذلك.

على غرار عالم الظلمات هذا الذي لمحه لمرّات عديدة في الصباح الباكر، هذه الطيور الثلاثة سوف تزول أيضاً، يوماً ما. سوف تغادر العشّ. وحينها سوف تنقطع الصلات معها.

أحسّ جونسون أنّه محصور. راودته الرغبة في أن يفتح منقاره على وسعه، لكي يبتلع السماوات. كان هاجس الزوال يعذّبه بطريقة جديدة.

98

أوّل مَنْ خرج من قشرة البيضة، له في قاع حدقة عينيه لمعة مائلة للزرقة.

هل كانت خدعة ضوئية؟ في وضح النهار، كانت عيناه تلتمع فقط ببريقٍ ذهبي، ولكن بعد طلوع الشمس مباشرةً، وقبل غروبها، كانت ومضاتٌ فيروزية تعبرهما.

يتميّز أيضاً بالهدوء.

حينما يقدّم جونسون وشعاع أخضر له زقّة الطعام، كان الفرخان الآخران يتعاركان ويحاول كلّ منهما أن يكون أوّل من يأكل، مبعثراً الطعام. كان هو الوحيد الذي ينقر الطعام بهدوء.

كان جونسون قد أطلق عليه اسم سماء ماغنوليا.

هذا الاسم كان الصورة التي كوّنّها عنه، الصورة التي تخصّه.

كانت ماغنوليا ذات أزهار الزنبق تُزهر قبل كلّ الأنواع الأخرى. وكانت أزهارها تتفتّح على السماء الزرقاء في الأيام الأولى من فصل الربيع، سماء تذكّره بزرقة عينَي الفرخ.

99

أمّا ثاني من كسر قشرته فقد كان يأخذ مكانه دائماً في الوسط حينما كانت الفراخ الثلاثة تمدّ منقارها، جنباً إلى جنب.

كان يُرخي جناحَيه على أجنحة جارَيه. وعندما كان، لسببٍ من الأسباب، يفقدُ هذا الاتصال، كان يشرع في الحال في هزّ رأسه، وهو يزقزقُ بصوتٍ قلق.

ومع ذلك هو أوّل من ظهرَ الريش على رأسه.

كان الريش زغباً ناعماً جدّاً بحيث يمكن لقطرة ماء أن تتغلّب عليه، ولكنه ينمو بوفرة.

لمسَه جونسون بطرف منقاره. وربّما لأنّها كانت هذه هي المرّة الأولى التي تُلمَسُ فيها جمجمته، سقطَ الفرخ منقلباً على ظهره، مذعوراً. فأسرعَت شعاع أخضر إلى رفعه بمنقارها لكي تجنّبه التدحرج بعيداً.

وأُطلِق على هذا، اسم سحابة دائرية.

كانت سحابة دائرية تماماً تواصل على الدوام، بين سحابتين

ركاميتين، جريها وحيدةً، دون أن تمتزج بهما. سحابة صغيرة، ولكنّها مبهرجة تماماً كالسحابتَين الأخريين الأكبر حجماً.

نظر جونسون إلى الفرخ، ثمّ إلى شعاع أخضر.

نقل لشريكته: هذا اسمه سحابة دائرية.

100

وآخر من خرج من قشرته لم يكن بوسعه أن يُسمّى سوى زوبعة.

لم يكن جونسون هو الذي أطلق عليه هذه التسمية، وإنّما الانطباع الذي استمدّه من نظرة شعاع أخضر.

باختصار، كان فرخاً متقلِّب المزاج تماماً.

ففي الوقت الذي تعتقدون فيه أنّ الفراخ الثلاثة على وشك أن تمدّ مناقيرها، وأنتم تنظرون إليها، يجهد أحدها لكي يتسلّق حافة العشّ. وإذا ما حاولتم إعادته إلى الداخل بدفعة خفيفة من المنقار، يقرصكم بفكَّيه الصغيرَين. في بعض الأحيان، كان يتخبّط، رافعاً مؤخّرته في الهواء، وحاصراً رأسه بين علّاقتَين.

كان هكذا.

يحدث لشعاع أخضر أن تسجع مطوّلاً وهي تدفعه بمنقارها. وحينما تعيده إلى مكانه للمرّة الألف ويصرُّ هو على العودة والسقوط في ثقبٍ، تُلاحظُ بوضوحٍ لا لبس فيه نبرة تعبٍ في صوتها.

وعندما ينظر جونسون إليها، كانت شعاع أخضر، غائرة العينَين، تدع جناحَيها يسقطان برخاوة. وكانت صورة أشجار الدردار

المهتزّة بفعل زوبعةٍ تعوم في حدقتَي عينَيها. اسم هذا الفرخ إذاً زوبعة.

101

ثلاثة فراخ متشابهة جدّاً، ولدت في اليوم نفسه من ثلاث بيضات يكاد يكون من المستحيل تمييزها عن بعضها.

ومع ذلك كان لكلٍّ منها طبعه وسلوكياته الخاصّة به.

وكانت تتصرّف على نحوٍ مختلفٍ حيال شعاع أخضر وجونسون.

كان سحابة دائرية متعلّقاً جدّاً بأمّه. يكفي أن تغيب عن حقل رؤيته حتى يشرع في إطلاق صرخات ثاقبة. وزوبعة يبدو معجباً بجونسون. عندما كان والده يعود، ومنقاره محمّل بالطعام، يستقبله فارداً جناحَيه الصغيرَين.

في حين كان سماء ماغنوليا يتمتّع بنوع من الاستقلالية.

لم يكن عبثاً أنّه كان أوّل مَن خرج من بيضته. كان أيضاً أوّل مَن رفض الطعام الذي تتقيّأه شعاع أخضر، مفضلاً الحشرات الحيّة التي يجلبها جونسون. في بعض الأحيان، كان يُشاهَد جاثماً فوق سحابة دائرية وزوبعة، بادي الأهمية. لا شكّ أنّ وعيه سوف ينمو على نحوٍ أسرع من وعي الآخرين.

ولكن ثلاثتهم كانوا، بالطبع، لا يزالون فراخاً.

عند هبوط الليل، كانت الفراخ تتجمّع في وسط العشّ. وعندما تبسطُ شعاع أخضر جناحها فوقها، كانت تكفّ عن الزقزقة، وتنام.

تشكّل أشباحها الثلاثة الساكنة، بالنسبة إلى جونسون، هنا أيضاً، مشهداً لا يُنسى.

يشعر وكأنّ عشر ذبابات تعبث تحت جناحه، فيرغب في أن يفتح منقاره ويرسم حلقات واسعة حول العشّ.

102

كان قد تغيّر كلّ شيء فيه منذ ظهور الفراخ الثلاثة.

أراد جونسون قطعاً مشاركة ذلك مع ذات الجناح الكبير. بعد أن موّن العشّ بالطعام في الساعات الباكرة من النهار، طارَ في اتجاه شجرة أرز الهيمالايا.

كانت الأمطار الليلية قد توقّفت؛ هذا الصباح، الأرض والنباتات متخمة بخيرات قطرات الماء.

أسطح المنازل، والأسلاك الكهربائية، والعشب من حول الحُفَر، كان كلّ شيء يتلألأ.

وهو يطير، كان جونسون يتفحّص المشهد الطبيعي الذي يمتدّ تحت أنظاره، ويحفظه في ذاكرته. وإذ عجزَ عن كبح الغبطة التي كانت تسكنه، أطلق نعيقاً قويّاً كما لم يطلق مثله منذ زمنٍ طويل.

تلألأت الأسطح المثلّثة للمصنع تحت قطرات المطر. بطبيعة الحال، كانت إبَر شجرة الأرز تشعّ، مثل حواشي الأحجار الثمينة.

رسم جونسون دائرة حول الشجرة بطيرانه. دار حولها دورةً كاملة.

كانت ذات الجناح الكبير هناك. متكوّمةً على نفسها لائذةً بأوراق الشجرة، كالعادة. كما لو أنّها شظيّة من ظلٍّ هجرَه الليل.

جثم جونسون على قمّة الشجرة.

استدارت ذات الجناح الكبير ببطءٍ نحوه. كانت عيناها مغمضتَين، ولكنّها بدت أنّها قد أدركت أنّه حطّ هناك لأنّها فتحت برخاوة جناحيها المنتوفَين.

نعق جونسون: «مرحباً!».

خفضت ذات الجناح الكبير رأسها فجأةً. فألقت عليه نظرةً من الأسفل.

ولد سجعٌ ضعيفٌ من حلقها.

«مرحباً».

تقدّم جونسون خطوةً إلى الأمام، ومسّ بطرف منقاره منقار ذات الجناح الكبير.

تراجعت الطير العجوز بسرعة. اقتلعت بعض الإبَر في متناول منقارها وشرعت في إطلاقها في الهواء.

كان ذلك ما تفعله دائماً.

«ثلاثة فراخٍ صغيرة».

حاول جونسون أن ينقل هذه الصورة إلى ذات الجناح الكبير التي أدارت له ظهرها.

«سماء ماغنوليا».

أرسل إليها الصورة التالية بينما كانت تُسقط الإبَر.

«سحابة دائرية».

كانت تلتفت في بعض الأحيان لبرهةٍ، ولكنّها، كما لو عمداً، تُظهر له كتفَيها النحيفَين.

ومع ذلك، لم يستسلم جونسون.

«زوبعة، الذي يقلقني».

ظلّ للحظةٍ يتأمّل ظهر ذات الجناح الكبير التي واصلت انتزاع إبَر الشجرة ولفظها.

لم تعد الطير العجوز تتظاهر بالالتفات.

لسببٍ لم يفهمه جونسون، كانت حبالٌ رفيعة تتشابك هنا وهناك بين الأغصان. لا شكّ أنّ ذات الجناح الكبير هي التي كانت قد جلبتها. لم يكن يرى تفسيراً آخر.

أكانت ذكرياتها هي التي تدفعها لكي تتصرّف بهذه الطريقة؟ هل كانت لا تزال تجهد لكي تبني عشّاً؟

بعد أن تأمّل شبحها لبرهةٍ، غادر جونسون دون صخبٍ قمّة الشجرة. نزل إلى الأسفل، وحامَ على علوٍّ منخفض كاد يلامس معه الأرض، ثمّ عاود الارتفاع.

محلّقاً فوق الأسطح المثلّثة، ألقى نظرة أخيرة إلى الوراء، نحو شجرة الأرز.

ثمّ أسرع نحو المجمّع السكني الذي كان يقيم فيه يويتشي وريتسوكو.

103

في ظلّ خزّان مياه، راقبَ جونسون يويتشي.

كان الصبي يسير بخطى حثيثة، مثقلاً لا بحقيبته المدرسية، وإنّما بكيسٍ ومضرب بيسبول.

كان شعره قد نما. وفيه شيءٌ جديد أمتَع جونسون.

كلّما رآه، لاحظ تغييراً في يويتشي. كان يكبر.

مركّزاً على ظهره، أرسل إليه جونسون صورة الفراخ الثلاثة.

ثمّ انطلقَ من جديد نحو عشّ جادة أشجار الدردار، دون أن ينتظر ريتسوكو.

كان طيف شعاع أخضر وهي تُطالبه، في صمتٍ، بإحضار الطعام قد انطبع في ذهنه.

104

في ذلك اليوم، كانت الصورة الجديدة التي انحفرت في ذاكرته هي صورة الفراخ الثلاثة المصفوفة وهي تنظر إلى أوراق شجرة الدردار.

لا شكّ أنّها كانت شبعة إذ لم يفتح أيٌّ منها منقاره طلباً للطعام. بل بدا عليها النعاس بعض الشيء. فقط رؤوسها المتماثلة تبرز، جنباً إلى جنب، من تحت جناح شعاع أخضر. حينما تكون في حالة حركة، كان من الممكن تمييزها عن بعضها بسهولة، أمّا إذا كانت نائمة، فكانت تتشابه على نحوٍ رهيب.

وبينما جونسون يتأمّلها، اكتشف اكتشافاً عجيباً.

كانت صورة ما تنظر إليه تنعكس في حدقات عيونها.

في عيونها التي جفونها تُسبَل عليها في بعض الأحيان، كان يرى الأوراق المرتعشة لشجرة الدردار.

أيقظ هذا المشهد في داخله أولى ذكرياته.

شجرة أرزّ الهيمالايا المشعّة، وإبَرها الشبيهة بخطوط الضوء.

أوّل صلة له مع العالم، كانت ذكرى هذه الإبَر المدبّبة.

ما كان يقع تحت أنظار الصغار.

أوراق شجرة الدردار هذه الغامرة بالشمس. هذه الخضرة.

سوف تكون هذه أولى ذكرياتها. عالمها.

عند كلّ هبّة رياحٍ عنيفة بعض الشيء، كان جونسون يفردُ جناحَيه لكي يحمي العشّ من الزوابع.

ولكن في بعض الأحيان، كان يحدث له أن يُبقي جناحَيه مضمومَين ويدع الرياح تمرّ. فكانت أوراق شجرة الدردار ترقصُ حينها بجنون.

عند كلّ حركة، كانت جفون الفراخ ترتفع وتنظر بخطٍّ مستقيم أمامها.

حفر جونسون هذا المشهد في ذاكرته. وكانت شعاع أخضر، هي الأخرى، تتفحّص ذريتهما.

105

بدأ كلّ شيء قبل أن يشتدّ الضوء، في الصباح الباكر من اليوم التالي.

في الشرق، كانت السماء لا تزال معتمة، والوقت مبكّراً بحيث لم تكن أولى القطارات قد بدأت سيرها.

بالقرب من ساحة المحطّة، بدأت الغربان بالنعيق.

كان في الحقيقة أكثر من نعيق، كان صراخاً.

طارت بعض الغربان عالياً في السماء، وهي تخفق بأجنحتها على نحوٍ صاخب.

كانت لا تزال هناك نجومٌ في السماء.

ومع ذلك لم تكن الرياح تهبّ؛ ما الذي كان يحدث؟

مدّ جونسون، الذي استيقظ في اللحظة نفسها التي استيقظت فيها شعاع أخضر، عنقه وحطّ على حافة العشّ.

تصاعدت موجة غاضبة من الصيحات. استيقظت غربان الأعشاش المجاورة بدورها.

في اللحظة نفسها، هوى غرابٌ قادمٌ من أطراف المحطّة وارتطم بشكلٍ مباشرٍ بغصنٍ وسقط على نحوٍ عشوائي.

نظر جونسون إلى شعاع أخضر.

بادلته نظرته.

طارَ جونسون.

106

خلف شجرة الدردار المجاورة، انكشفَ أمام عينَيه المشهد الذي كان يجري بالقرب من المحطّة.

تقاطعت أشعّة عديدة، ساطعة مثل ضوء النهار.

أهي أذرع؟

انبثقت أذرع معدنية طويلة من بين أوراق أشجار الدردار. كان النور ينبعث من تلك الأذرع.

إجمالاً، كانت هناك أربعة أذرع.

مرتبطةً بالمركبات الضخمة التي تمدُّها نحو الأعلى، كانت تتقدّم ببطءٍ وهي تُبعد الأغصان على طريقها.

في الأعلى، كانت غربانٌ تحوم في كلّ الاتجاهات. وكانت هي التي تصيح.

رسم جونسون دائرة واسعة حول الموقع. لم يشعر بأنّه مستعدٌّ لأن يغوص فيه مباشرةً. حدسٌ مشؤومٌ جعل ريش ظهره ينتصب.

تخبّطت الطيور، وطارت بغضبٍ، وكادت تسقط مثل الحجارة.

سأل جونسون غراباً أوشك على أن يصطدم به في طيرانه الجامح: «ماذا؟».

لم يفهم الأجوبة التي تلقّاها. كانت الطيور كلّها تصل في حالة فوضى، وهي لا تُطلق سوى صيحات هائجة.

«ماذا؟».

في اللحظة التالية، فقدَ جونسون نفسه كلّ قدرة على التواصل.

كان قد طار نحو الساحة، وغاصَ، مقترباً من سطح المحطّة، منخفضاً نحو الأذرع المعدنية.

وهناك رأى اللوحة في مجملها.

كانت الأذرع الحديدية مزوَّدة في أطرافها بمنصّةٍ. منصّة محاطة بسياجٍ شبكي. يقف فوقها عمّالٌ يعتمرون خوذات.

ويدمّرون الأعشاش.

ينهالون عليها ضرباً بقضيبٍ حديدي.

ويرمون الفراخ في سطولٍ.

ويدسّون أرجلهم في هذه السطول.

كان البشر يدمّرون كلّ شيء.

كان البشر يقتلونهم.

كان الآباء والأمهّات هم من ينعقون معبّرين عن أساهم.

وكان بشرٌ آخرون يجهدون لكي يأسروا بشباكٍ الطيور التي تحاول الاقتراب رغم كلّ شيء.

107

حامَ جونسون مرّتين حول الموقع قبل أن يغادر نحو عشّه، وهو حائرٌ ومرتبك تماماً.

كان على بعد أمتارٍ قليلة. ومع ذلك، لم يكن جناحاه يُطاوعانه. حاول عبثاً أن يحرّكهما، إلّا أنّه لم يتقدّم.

كان الأمر كما لو أنّ الهواء قد تحوّل إلى ماء. كان الضغط رهيباً، والهواء ثقيلاً. وكان يعاني صعوبة في التنفّس.

نجحَ أخيراً في أن يحطّ فوق قمّة شجرتهم وهو يصيح بهذه الكلمة:

«بشر!».

كانت شعاع أخضر، الجاثمة على غصنٍ يقعُ مباشرةً فوق العشّ، تنظرُ إلى أشعّة الضوء المتداخلة.

«بشر!».

واضعاً كلّ قوّته في نظرته، أخبرها جونسون بالخطر المتربّص بهم. بعد أن ظلّت لبرهةٍ في مكانها كما لو أنّها شُلّت، أسرعت شعاع أخضر بالنزول إلى العشّ.

بدت الفراخ الثلاثة وكأنّها خمّنت أنّ شيئاً ما يحدث. حرّكت رؤوسها في كلّ الاتجاهات وهي تحرِّك أجنحتها.

أجنحة كانت بالكاد قد تغطّت بالزغب. كان من المستحيل تماماً بالنسبة إليها أن تطير.

أمسكت شعاع أخضر سحابة دائرية في منقارها.

أطلق سحابة دائرية صرخة ثاقبة، وقاومَ، وهو يخبط بجناحَيه ورجلَيه. لقد تخبّط كثيراً بحيث أفلتته شعاع أخضر. سقط الفرخ من جديد في العشّ. هزّ جناحَيه وهو يطلق صيحات قصيرة غاضبة.

راح جونسون وجثم في أعلى الشجرة تماماً.

كانت الأضواء المتداخلة قد اقتربت كثيراً.

وكذلك الأذرع المعدنية. تقدّمت، محمّلة بالبشر، وهي تقصفُ الأغصان.

حامت الغربان فوقها على نحوٍ متزايد.

امتلأت السماء بالصرخات.

تردّد صدى سجعٍ: هذه المرّة كان سماء ماغنوليا هو من يحتجّ.

قد أمسكته شعاع أخضر بمنقارها.

متفاجئةً بصرخات فرخها، باعدت بين فكَّي منقارها مرّة أخرى.

سقط سماء ماغنوليا في قاع العشّ، حيث بات يتلوّى.

عاد جونسون إلى العشّ.

تغيّرت نظرة شعاع أخضر. تماماً مثل نظرة جونسون. كانا مذهولَين.

اقتربت الأضواء.

كانت تدور حول نفسها، مضيئةً أوراق الشجر أمامها مباشرةً.

أخذ فراخهما في منقاريهما، ولكن ليأخذاهم إلى أين؟

إلى شجرة أرز الهيمالايا؟ إلى بيت يويتشي؟

حتى إذا كانت الفراخ تتخبّط، نظراً إلى الوضع، فالحلّ الوحيد كان نقلها بين فكّيهما، حتى إذا جرحاها.

نظر جونسون إلى شعاع أخضر

اختبر عزيمتها.

توقّفت الأضواء بالقرب منهم تماماً. سقطت غربان الشجرة المجاورة في صياحٍ. اقتربت أصوات البشر. ارتعشت الأغصان.

لمحا الأذرع المعدنية بين أوراق الشجر.

أمسك جونسون على نحوٍ مفاجئ سحابة دائرية في منقاره.

صرخ الفرخ، ولكنّه أمسكه بشدّة، عاقداً العزم على عدم إفلاته.

وأمسكت شعاع أخضر سماء ماغنوليا. استبدّت تشنّجاتٍ عنيفة بالفرخ، جاحظ العينَين.

في وسط العشّ، كان زوبعة، الذي لم يأخذه أحد في منقاره، يجوّل عينَيه باهتياجٍ. يفتح منقاره ويحرّك جناحَيه الصغيرَين.

زوبعة!

لم يستطع جونسون أن يحيد بصره عن الفرخ الذي بقيَ وحيداً.

لم تحسم شعاع أخضر، التي كانت هي أيضاً مذعورة تماماً، قرارها في أن تطير.

كان زوبعة يكافح. حاول أن يتسلّق على حرف العشّ، ولكنّه سقط منقلباً إلى الوراء.

في اللحظة نفسها، أنارهم وميضٌ أبيض.

تردّدت أصداء أصوات البشر بالقرب منهم تماماً.

نزل شيءٌ ثقيل فوق العشّ.

أحسّ جونسون أنّه قد أُمسِكَ من رقبته.

خفق جناحَيه بكلّ قواه وأفلت من القبضة.

أطلق كائنٌ بشري صيحةً. أحسّ جونسون بمقاومةٍ تحت مخالبه.

بعد برهةٍ، كان يحوم في الأجواء. خفق بجناحَيه بعنف، مرتطماً بالأغصان.

لكن سحابة دائرية كان قد اختفى من بين فكَّي منقاره.

لقد سقط الفرخ في العشّ، وهو يتقلّب في كلّ الاتجاهات.

باتت الأذرع المعدنية فجأةً أكثر عدداً. علاوة على الأربعة التي

ارتاب فيها جونسون، برز ذراعان آخران. وهاجم واحدٌ منهما عشّهم.

بشرٌ تُطلق خوذاتهم لمعاناً.

أمسكت يدٌ ضخمة ترتدي قفازاً بسحابة دائرية. وألقت به أرضاً.

لم يعد جونسون يرى شعاع أخضر. ولكنّها هي أيضاً فتحت منقارها، فقد كان سماء ماغنوليا يتخبّط في قاع العشّ. إلى جانبه، يطلق زوبعة صيحاتٍ ثاقبة.

أمسك الكائن البشري بهما في حركةٍ واحدة وألقى بهما على الأرض. في اللحظة التي كانا يغادران فيها هالة الضوء، رأى جونسون زوبعة وهو يحرّك بشراسة جناحَيه الصغيرَين.

استسلم للسقوط، مرتطماً بالأغصان.

لو لم يُخفض جناحَيه قبل الوصول إلى الأرض، لتحطّم عليها. لقد سقطَ سريعاً جدّاً. خفق جناحَيه في اللحظة الأخيرة، مارّاً على مستوى ركبتَي كائنٍ بشري في الشارع.

مع صرخةٍ، سدّد الرجل إليه ركلةً.

راح جونسون، وقد ضُربِ في جناحه، يجثم على الغصن الأكثر انخفاضاً في الشارع.

أمّا زوبعة، الذي تحطّمَ على الأرض، فقد تمزّقت معدته.

وحدهما جناحاه الصغيران كانا يرتعشان مثل جناحَي نحلةٍ.

أمسكت يدٌ بشرية به وألقته في سطلٍ.

خارت كلّ قوى جونسون.

أراد أن ينقضّ على الرجل، ويطرحه أرضاً.

لكنّ جناحَيه رفضا الطيران. ورجلاه رفضتا التحرُّك. وحدهما عيناه كانا يسجّلان المشهد.

لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى النظر.

في تلك اللحظة، برز طيفٌ من بين العتمة.

إنّها شعاع أخضر.

مباعدةً بين مخالبها، ارتمَت على رقبة الرجل الذي يحمل السطل.

سقط على ركبتَيه مطلقاً صرخةً. أفلتَ السطل من يده. انسكب محتواه على الطريق المعبّدة. خمسة أو ستة فراخ. أيٌّ منها سماء ماغنوليا، أو سحابة دائرية؟ من المستحيل تعرُّفهما.

أبرزت شعاع أخضر خفقات جناحيها المحمومة بصرخاتٍ حادّة. عادت إلى الهجوم على الرجل نفسه.

مثلها هي، كان جونسون يرغب في أن يحلّق ويغرز منقاره النافر إلى الأمام في ذلك الكائن البشري.

ولكن جناحَيه ظلّا متصلّبَين بلا حراك.

فقط عيناه كانتا كما لو أنّهما منجذبتان بالمغناطيس إلى المشهد أمامه.

سجّل جونسون كامل المشهد.

أمّا شعاع أخضر، فقد ازدادت هيجاناً. مخرجةً كلّ مخالبها، هاجمت البشر واحداً تلو الآخر.

شعاع أخضر!

جونسون، الذي لم يعد موجوداً سوى من خلال عينَيه، رأى بوضوح الخطر قادماً.

شعاع أخضر! انتبهي إلى خلفك!

كان كائنٌ بشري قد أخرج شبكةً. مصيدة مثبّتة بطرف قضيبٍ معدني.



شعاع أخضر!

تمَّ ذلك سريعاً.

حينما أصبحت أسيرة في المصيدة، رُميت شعاع أخضر في الشارع المعبّد. كانت رجلاها اللتان تبرزان خارج المصيدة تتحرّكان. تمّ سحقها مجدّداً على الأرض. في المصيدة، توقّف جناحاها عن الخفقان. وحدها صرخة مخنوقة صدرت عنها.

لم يعد جونسون يعرف أين هو.

لم يعد سوى نظرة.

الفراخ التي تدحرجت على الطريق أُعيدت إلى السطل.

وهي تسجع بأصواتٍ ضعيفة.

دسّ كائنٌ بشري قدمه في السطل. وداسَ على ما فيه. تخافتت الصيحات داخله.

أُخرِجَت شعاع أخضر من المصيدة.

ركلها كائنٌ بشري بقدمه. تدحرجَت على نفسها، مثل نفاية عديمة القيمة.

كان منقارها مفتوحاً جزئياً. وعيناها الذابلتان تحدّقان في الأضواء المتداخلة والأذرع المعدنية.

ركلةٌ أخرى.

تدحرجت شعاع أخضر بالقرب من جونسون.

أدرك أنّ عينَيها كانتا على وشك الانطفاء.

شعاع أخضر!

في اللحظة الأخيرة، تماماً قبل أن تفقد الوعي، بدا له أنّها نظرت إليه.

ثمّ اختفت. زالت، تاركةً جثّتها خلفها.

الكائن البشري الذي كان يمسك رقبته بيده، أشبع جسدها ذا العينَين المفتوحتَين ركلاً بالقدمَين. انخلع جناحاها، وسُحقت رقبتها، ولكنّه ظلّ ينهال عليها ركلاً. ثمّ وُضِعَت في كيسٍ. ووُضعت الفراخ المسحوقة في قاع السطل في كيسٍ آخر.

كان عددٌ كبير من فراخ الغربان قد أُسِرَت وسُحِقَت بالأقدام.

والآباء والأمّهات التي كانت تحوم حول الموقع تعرّضت لمصير شعاع أخضر نفسه حينما هاجمت البشر. محبوسة أحياء في أكياسٍ، كانت تقضي بركلات الأقدام.

وهكذا كانت تتقدّم، في جادة أشجار الدردار، مركباتٌ ذات أذرعٍ معدنية، وبرفقتها كائناتٌ بشرية.

كانت تتقدّم وسط صرخات الغربان وهدير المحرّكات.

صرخاتٌ وهديرٌ. صرخاتٌ وهديرٌ. صرخاتٌ، هديرٌ.

في أعقاب الكائنات البشرية، كان يبقى الآباء والأمّهات من الغربان الغارقة في أنينها. كانت تحوم، عاجزةً، في السماء التي بدأت تميل إلى البياض.

أمام الكائنات البشرية، كانت الغربان التي سوف تُدمَّر أعشاشها

تنتظر وسط الصرخات. كانت الأذرع المعدنية تكسر أغصان أشجار الدردار واحدة تلوى الأخرى، تدفع بأضوائها، عاقدة العزم على ألّا توفِّر أيّ حياةٍ خلفها.

ومن ثمّ كانت هناك غربانٌ أخرى، صامتة وساكنة بلا حراك.

متقوقعة على نفسها بين أوراق الشجر، كأطيافٍ متفرّجة كانت تحفظ المذبحة في ذاكرتها.

كانت غريزتها في البقاء تظهر بطريقة مختلفة.

كان جونسون أحد تلك الغربان.

108

عند طلوع الشمس، عندما استأنفت القطارات سيرها، كان البشر والأذرع المعدنية قد غادروا.

لدى النظر إليه من الطريق المعبّد، بدا منظر جادة أشجار الدردار كما كان في العادة.

على الأرصفة، كان البشر يستعجلون الذهاب إلى مكاتبهم أو مدارسهم، دون إلقاء نظرة على الأشجار.

هذا أيضاً، كان مثل كلّ صباح.

ولكن في أشجار الدردار، كان كلّ شيء قد تغيّر.

فالغربان التي تحوّلت إلى مجرّد نظرة والغربان التي حامت مطلقةً صرخاتٍ على حدّ سواء لم تعد سوى أشباح فارغة جاثمة على الأغصان.

كانت قد عادت إلى قِمَم الأشجار، متسائلةً إن لم يكن كلّ هذا

سوى حلمٍ مزعج، ولكن لم يعد هناك أيّ أثرٍ لأعشاشها كما لفراخها.

كان جونسون هو الآخر قد بقيَ بين الأغصان.

وحينما تماوجت أوراق شجرة الدردار فجأةً بفعل هبّ النسيم، بدا له وكأنّه قد لمحَ شعاع أخضر بين الأوراق.

ولكنّها لم تكن هناك. كما لم يكن هناك أثرٌ لعشّهم.

ولا لسماء ماغنوليا أو سحابة دائرية أو زوبعة.

نزل جونسون إلى الطريق المعبّد، ثمّ عاد إلى الأغصان.

بحثَ بينها عن شعاع أخضر.

ولكن عبثاً.

كان تائهاً.

كانت الغربان جاثمة بين الشجر، ساكنة بلا حراك.

أحياناً، يُطلق غرابٌ من بينها صرخة غريبة.

ولكن الغالبية كانت تقف صامتة، مجرّد ظلال جامدة.

109

كانت ريتسوكو تتهيّأ لإخراج دراجتها الهوائية من مرأب الدرّاجات.

نودي عليها؛ فاضطرّت لأن تلتفت. سرَت قشعريرةٌ باردة في عمودها الفقري.

كان رئيس جمعية السكّان يقف أمامها، وفي يده دفترٌ.

على نحوٍ استثنائي، أفرج عن ابتسامةٍ.

- أخبريني، سيّدتي، هل لديك لصاقة الاشتراك؟

أخرج من أحد جيوب سترته العديدة حزمة من اللصاقات المضمومة بشريطٍ مطاطي.

- كلا، متأسّفة.

- آه، هذا مزعج للغاية. حقّاً أنتِ لا تلتزمين بالقانون.

كانت ريتسوكو تمتلك تلك اللصاقة، ولكنّها كانت قد دسّتها في قاع أحد الأدراج.

من أجل استخدام مرأب الدراجات في المجمّع السكني، كان ينبغي دفع اشتراك بالإضافة إلى النفقات الجارية. وعندما المرء يدفع الآجار لسنة كاملة مقدّماً، يحصل على لصاقة اشتراكٍ. والقانون المعمول به هو وضع هذه اللصاقة على نحوٍ واضحٍ للعيان على الدرّاجة الهوائية، ليكون ذلك دليلاً على أنّه قد دفع التزاماته المالية.

لكن ريتسوكو تكره كلّ هذا الإجراءات. هذه اللصاقة بالذات كانت بشعة. كانت تحمل بالأحرف الكبيرة اسم مجمّعهم السكني. ولم تكن تحبّذها على دراجتها الهوائية.

- لديّ اللصاقة، إنّها في البيت.

أدارت ظهرها لرئيس الجمعية الذي كان يقترب منها لكي يعطيها لصاقةً.

ولكنّه واصل تقدّمه وهو يُزيح الدراجات الهوائية عن طريقه.

- أخبريني إذاً، حكاية الغراب تلك، في السنة الماضية...

- ماذا؟

- حينما نربّي حيواناً، نتعلّق به، أليس كذلك؟

تُرى ما الذي كان يقصده؟

لم تكن تتمنّى سوى شيءٍ واحد، أن تهرب بأسرع ما يمكن من هذا الرجل ذي الابتسامة الماكرة.

- أنا أفهمك. لا شكّ أنّ الطفل يرغب في تربية حيوان. وهل عاد ذاك الغراب؟

- كلا.

علّقت كيسها على كتفها، دون أن تكلِّف نفسها عناء وضعه في سلّة الدرّاجة. مظهرةً بتصرّفها هذا بأنّه لم يكن لديها وقتٌ لتضيّعه في الثرثرة.

- آه حقّاً؟ حتى لو أنّه نجا وعاد، سوف يكون الأمر معقّداً.

- ماذا تقصد بكلامك هذا؟

لم تكن تفهم شيئاً.

- أليس لديك علمٌ؟

- عمَّ تتحدّث؟

رفعت من نبرة صوتها. كان رئيس الجمعية يحدّق فيها بثبات. ابتسم، ولكن بازدراء.

- إنّ ذلك مكتوبٌ في نشرة المعلومات البلدية، فاعتقدتُ أنّكِ لا بدَّ قد أُصبتِ بالإحباط. سوف تقوم المدينة بجهدٍ جديد لإبادة الغربان. معظم السكّان يؤيّدون ذلك.

رفعت ريتسوكو ركيزة دراجتها وحاولت أن تمرّ عنوةً. لكنّ مقود الدرّاجة المجاورة أعاقها. فلم تستطع الخروج.

- بما أنّه ليس من الوارد أن يتمّ قتلها وهي تطير، من المستحيل القضاء عليها نهائياً، هذا مكتوب. ولكن هذا الوقت هو موسم تكاثرها. وإذا ما تمَّ القضاء على كلّ الفراخ الآن، سيكون عددهم

أقلّ في موسم التكاثر خلال السنوات القادمة، أليس كذلك؟ إنّها خطّة إبادة على المدى الطويل، على ما يبدو.

كان قد جاء ليخبرها بالنبأ العاجل.

راودتها الرغبة في أن تفلق جمجمته.

- لا يهمني الموضوع.

ودون حتى أن تلقي عليه نظرة، أخرجت درّاجتها الهوائية بالقوّة.

استأنف حديثه:

- بهذا الصدد. . .

جاثمة على سرج درّاجتها، كانت ريتسوكو تتهيّأ للتقدّم حينما وضع رئيس الجمعية يده على مقودها.

- ماذا تريد؟

- لديّ سؤالٌ لأطرحه عليكِ.

- ارفع يدك عن درّاجتي، من فضلك.

كان مرأب الدرّاجات مرئياً من قبل جميع السكّان.

لا شكّ أنّ بعض المستأجرين كانوا يراقبونهما من شرفاتهم؛ ولذلك آثرت ريتسوكو أن تبقى مهذّبة معه.

- في الحقيقة، تشاجرت ابنة أخي مع زوجها لسببٍ تافهٍ، وقد قرّرا أن ينفصلا.

- نعم؟

- أخبريني: سيكون هذا الأمر محزناً بالنسبة إلى الأطفال، أليس كذلك؟ أهذا ما يمنحهم الرغبة في تربية طيرٍ؟

- إذا سمحتَ لي. . .

داست ريتسوكو بكلّ قواها على دوّاستَي الدرّاجة. لكنّ مقودها كان لا يزال حبيس يد رئيس الجمعية. فقدت توازنها، فوضعت إحدى قدمَيها على الأرض.

- ماذا تفعل؟

بدأ صوتها يرتعش. أوشكت على أن تصرخ في وجهه.

قال رئيس الجمعية بصوتٍ يشبه الصفير، إذ كانت ابتسامته المزعجة قد تلاشت:

- الغراب، فهمنا، ولكنّ ابنكِ يرى والده، على الأقلّ، أليس كذلك؟

رفع يده ببطءٍ عن مقود الدرّاجة.

- الجميع يتحدّثون عنكِ، ويعتبرونكِ غريبة الأطوار. الجميع ما عداي أنا.

صعدت الدموع إلى عينَي ريتسوكو، كاتمة غضبها.

غادرَت المرأب.

كانت تقود درّاجتها، وهي عاجزة عن مقاومة دموعها.

ورغم أنّها كانت تعرف عن ظهر قلب طريق المتجر الكبير، إلّا أنّها ساقت بشكلٍ عشوائي.

الوقت قد حان لتغيّرَ مكان سكنها.

ستكون مغادرة المجمّع السكني التابع للبلدية للإقامة في شقّة من القطاع الخاص صعبة، نظراً إلى راتبها المحدود. لا بدَّ أنّها ستواجه صعوبةً في العثور على كفيلٍ.

ولكن ماذا لو تهجّم هذا الرجل على يويتشي بالطريقة نفسها. . .

كانت هذه الفكرة لوحدها كافية لتفقدها أعصابها.

شتمت لمرّات عديدة وهي تكزّ على أسنانها: «اللعنة!»، «اللعنة!»، «اللعنة!». . .

ليس فقط هذا الرجل. كان كلّ الرجال أشخاصاً سيّئين. عدا ابنها.

كان والدها كما زوجها السابق من صنف الرجال الذين يضجرون بالحديث عن فحولتهما.

ولكنّهما لم يقدّما لها فرصة واحدة لكي تُعجَبَ بهما. ولم يستعرضا قوّتهما سوى في ضربها؛ وحينما تحتاج إليهما، لا يعود هناك أحدٌ. بالنسبة إلى ريتسوكو، كان هذا هو نموذج الرجال.

كانت تكره هذا المجتمع الذي يستحوذ عليه الذكور.

لقد ضاقت ذرعاً بهذه الذكورية السائدة.

فقد تربّت باللكمات، والركلات، والإهانات.

لم تكن قد ارتكبت سوى خطأ وحيد، ولمرّة وحيدة.

وقد استغلّ زوجها ذلك لكي يتركها.

في المصنع، كانت هي من تنظِّف خطوط الإنتاج. ومع ذلك، كانت تتقاضى راتباً أقلّ من رواتب الرجال بمقدار ضعفَين. في حانة الكاريوكي، حينما تسكب الشراب للزبائن، كان بعضهم يلمس صدرها. وكان صاحب الحانة يكتفي بالضحك من ذلك. كانت تتحمّل ذلك لتكسب لقمة عيشها. ولكن مع ذلك لم تكن تملك ما تدفعه مقابل دروس تقوية لابنها يويتشي.

«اللعنة!».

ارتفع غضبها على شكل أمواج، مثل بكائها.

حينما عادت إلى صوابها، كانت قد وصلَت إلى أطراف المدينة.

كانت تقود درّاجتها على طريقٍ مجهول.

نظرت إلى ساعة يدها، فوجدت أنّ الساعة تشير إلى الوقت الذي يعود فيه يويتشي إلى البيت بعد أن يكون قد لعب في الخارج.

لا بدّ أنّه جائع.

أخرجت ريتسوكو منديلاً من كيسها، ومسحت به دموعها. كان الكحل قد حلّ ونزل من عينَيها، ولكنّها آثرت ألّا تفكّر في ذلك؛ إذ لم يكن بوسعها أن تعود خاوية اليدَين. بدعسةٍ على الدوّاسة، دخلت إلى مرأب الدرّاجات الهوائية لمتجرٍ كبيرٍ على طريقها.

110

أكثرَ جونسون من جولات الذهاب والإياب بين قمّة الشجرة والطريق المعبّد.

في الأسفل، كان كلّ شيء كالمعتاد. يلقي عليه بشرٌ الحصى؛ وهذا أيضاً، كان قد اعتاد عليه.

إذاً، بدا له أنّه سيكفيه أن يعود إلى الأغصان ليجد بينها عشّه.

سيجد هناك شعاع أخضر، والفراخ. كان يعتقد ذلك بالفعل.

ولكن في كلّ مرة، كان يرى أنّ العشّ قد اختفى.

فكانت ذكريات حمّام الدم تعود إلى ذاكرته.

كان يشعر بأنّه على وشك الاختناق.

وعالم الظلمات التامّة هذا الذي يظهر فجأةً عند هبوط الليل، ليزول في الصباح الباكر...

هل هذا هو المكان الذي غادرت إليه شعاع أخضر مع الفراخ؟

في هذه الحالة، هل سوف يظهر العشّ من جديد، ذات مساء؟

تُرى هل سيستطيع أن يراهم من جديد؟ شعاع أخضر، وسماء ماغنوليا، وسحابة دائرية، وزوبعة؟

كان جونسون تائهاً. يخفق بجناحَيه، دون أن يعلم إلى أين يذهب.

كان يطير وهو ينعق بصرخاتٍ غريبة.

هذه الصرخات المختلفة التي تسبّبت بحقد أقرانه.

توجّه نحو شجرة أرز الهيمالايا.

111

تلك هي المرّة الأولى التي تضع فيها ريتسوكو قدمها في هذا المتجر الكبير.

كانت تستشعر ما كانت ستقوم به.

بعد فورة غضبٍ، لم تعد تسيطر على يدَيها. كلّا، ليس على يديها. ليست يداها من تدفعها إلى ارتكاب الخطأ، وإنّما الفراغ الذي في صدرها. كانت قد تصرّفت بهذه الطريقة بعد كلّ ضربة انهالت عليها من والدها. وبعد كلّ صفعة تلقّتها من زوجها. بعد كلّ مضايقة تعرّضت لها في المصنع.

وضعت في سلّة التسوّق وجبةً جاهزة وبعض الأطباق المحضّرة من أجل يويتشي.

فتحت حقيبة يدها جزئياً ودسّت فيها علبة جبنة وعلبة من اللحم النيء. بفضل سنوات طويلة من الخبرة، كانت تتحكّم بالزوايا الميّتة التي تخفيها عن أعين موظفي المتجر والزبائن. وكانت هذه الزوايا تختلف تبعاً للازدحام والتوقيت.

كانت واثقة من نفسها.

لم تتغيّر الموسيقى المنبعثة من رفوف المتجر بشكلٍ مفاجئ. ولم يكن هناك موظف أمن في الأفق. أخذ محاسب الصندوق سلّتها دون أن يرفّ له جفن.

كُن صبوراً، يا يويتشي! أنا قادمة!

112

رسمَ جونسون دائرة حول شجرة أرز الهيمالايا. ثمّ دائرة أخرى. ثمّ دائرة ثالثة.

ولكن ذات الجناح الكبير لم تكن موجودة في أيّ مكان. لم تكن لا قمّة الشجرة، ولا أغصانها، ولا أوراقها تضمّ طيف الطير العجوز.

لفتت لطخةٌ سوداء نظر جونسون الذي راح يحطّ تحت الشجرة.

كان ما يقارب عشر ريشات متناثرة على الأرض. ريشات سوداء منهكة، مجعّدة تماماً.

ظلّ لبرهةٍ في المكان. ثمّ، ممسكاً بريشةٍ بين فكّي منقاره، راح

يحطّ على الغصن الذي كانت ذات الجناح الكبير تقف عليه متقوقعةً على نفسها.

جال ببصره على جميع أنحاء المكان.

ها هو المنظر الذي كان يمتدّ تحت أنظارها.

أمامه، الأسطح الحمراء على شكل مثلّث، ونقاط صفراء تتحرّك ببطء.

هذا المنظر، كان هو نفسه الذي شكّل طفولته المبكِّرة.

وماذا لو أنّه أصبح هو بدوره طيراً عجوزاً، جاثماً على هذا الغصن؟

استولت عليه الصورة على نحوٍ مفاجئ، مبقياً منقاره مفتوحاً.

الريشة السوداء، التي حملتها الريح، سقطت، مدوّمةً.

113

عادت إلى مرأب الدرّاجات الهوائية، ووضعت كيس المشتريات في السلّة الأمامية. وضعت حقيبة يدها فوق الكيس، وفكّت القفل ذا الرقم السرّي. تهيّأت لركوب دراجتها.

نزلت يد رجلٍ على مقبض المقود.

تفرّست ريتسوكو في الرجل، فاغرة الفم.

أربعيني. يرتدي الزي الموحَّد لموظفي المتجر الكبير.

أمسك شخصٌ آخر درّاجتها من الخلف.

استدارت ورأت امرأة بنفس عمرها، ترتدي زيّ موظفي الأمن.

مرّرت قفلٌ مع سلسلة معدنية غليظة بين قضبان العجلة الخلفية لدرّاجتها.

- ماذا يحدث؟

سرت رعشاتٌ في ظهرها، ولكنّها اعتقدت بأنّها قد احتفظت بتعبير وجهٍ وصوتٍ هادئين.

- سيّدتي، لم تدفعي ثمن كلّ أغراضكِ.

أُغلق القفل على عجلة درّاجتها.

لم يعد بوسعها الفرار بالدرّاجة. توقّف بعض الزبائن لينظروا باتجاههم.

- هذا تصرُّف شنيع! إلى ماذا تلمّح؟ لقد دفعت.

- نعم، لقد دفعتِ قيمة الأغراض الموجودة في الكيس الخاصّ بمتجرنا. ولكن لم تدفعي قيمة البضائع الموجودة في حقيبة يدكِ.

- كيف تجرؤ على التحدُّث مع زبونةٍ بهذه الطريقة؟

أمام غضب ريتسوكو، تراجع موظّف المتجر خطوة إلى الوراء. ولكنّ موظّفة الأمن سحبت حقيبة يدها من سلّة الدرّاجة.

- سيّدتي، لقد راقبتكِ على شاشات المراقبة. ولدي تسجيل الفيديو.

- ماذا تقصدين؟

أخرجَت علبة جبنة وعلبة لحم نيء من حقيبة يدها.

- هل دفعتِ قيمة هاتين العلبتَين؟

- نعم، بالطبع. لقد وضعتهما فقط في كيسٍ آخر.

- حسناً، يبدو أنّ الأمر سيطول. لو تفضّلتِ باللحاق بنا إلى مكاتبنا.

راودت عدّة خُطَط ذهنها. أيّ الخُطَط تعتمد؟ لبرهةٍ، اجتاحتها الحيرة.

فتبنّت الحل الأكثر استبعاداً.

حضر في ذهنها وجه يويتشي الذي كان ينتظرها، وحيداً في المنزل. وهذا ما جعلها تفقدُ صوابها وأعصابها.

دفعت موظّف المتجر وقلبت الدرّاجة في طريقه وأطلقت ساقَيها للريح.

كان هذا الخيار السيّئ نتيجة رهانها الخاطئ على حذائها الرياضي.

اعتقدت بأنّها تستطيع الإفلات من الموظّفين إذا ما ركضت بكلّ قواها.

نجحت في الخروج من مرأب الدرّاجات.

ولكنّها لم تنجح في الخروج من سور المتجر الكبير.

لقد أمسك بها الموظّف من شعرها، من الخلف، وطرحها أرضاً.

صرخ الموظّف وهو يسدّد لها ركلةً بقدمه:

- كنّا على استعدادٍ لأن ندعكِ تغادرين دون مشاكل!

لمسها من تجويف بطنها.

كانت ريتسوكو، مقطوعة الأنفاس، ملتوية على نفسها، واضعةً يديها على بطنها.

حاولت أن تقول: «تبّاً!»، ولكن الهواء تجمّد في فمها، وتركها بلا صوت.

تدخّلت موظّفة الأمن:

- توقّف! لم يعد هناك سوى استدعاء الشرطة.

وسألت ريتسوكو المطروحة على الأرض وهي تفرك ظهرها:

- هل أنتِ بخير؟

ارتعبت ريتسوكو.

الشرطة. تردّدت أصداء هذه الكلمة في أذنَيها.

114

ظلّ جونسون على قمّة شجرة الأرز حتى غروب الشمس.

حينما انعكس على إبَرها لمعان ذهبي، انتزع بعضها ولفظها في الهواء.

راقبها، في صمتٍ، وهي تتساقط مترنّحة نحو الأرض.

عند حلول الظلام، استأنف طيرانه. ارتفع عالياً في السماء لكي يتجنّب الأسطح وأسلاك الكهرباء. عبرت أضواءُ طائرةٍ السماء المظلمة. أطلق نعيقاً باتجاهها.

ثمّ قرّر أن يعود إلى جادة أشجار الدردار.

كان متأكّداً من أنّه سوف يرى، هذه المرّة، شعاع أخضر والفراخ هناك.

115

أمام التلفاز، كان يويتشي ينتظرُ عودة ريتسوكو.

رنَّ الهاتف بعد الساعة السابعة مساءً بقليل؛ فرفع السمّاعة، مقتنعاً بأنّ أمّه هي المتّصلة. لكنّ المتّصل كان صاحب حانة الكاريوكي، وسأل عن والدته. أجاب الصبي بأنّه لا يعلم أين تكون.

انتهى برنامجه المفضّل. بلغت الساعة التاسعة مساءً.

كان جائعاً جدّاً، ففتح باب الثلّاجة.

وجد فيها كفتة سمك مقلية، وبعض الكرنب. اقتطع نصفها وتناولها مغموسةً بصلصة الصويا.

ثمّ عادَ ليشاهد التلفاز. ظلّ جالساً أمامه حتى بلغت الساعة الحادية عشرة. ظلّ يلقي النظرات على جهاز الهاتف باستمرار.

رنّ الجهاز مرّة أخرى، بعد منتصف الليل. قال يويتشي في نفسه وهو يرفع السمّاعة غاضباً بعض الشيء بأنّ المتّصلة، هذه المرّة، هي أمه بكلّ تأكيد. لكنّ المتّصل كان صاحب الحانة مرّة أخرى، والذي طرح عليه، قلقاً، السؤال نفسه الذي طرحه في بداية السهرة. صعب على الصبي أن يُجيب عن السؤال. فاجأ نفسه بالقول: «ربّما تكون عند أبي». وكان يعتقد ذلك بالفعل.

مدّ فراشه بمفرده.

ضبط منبّه الساعة، ونظّف أسنانه بالفرشاة. كان جائعاً. عادَ واستقرّ أمام التلفاز.

116

لم يكن العشّ موجوداً في أيّ مكان.

جاثماً على الغصن الذي يُفترَض أن يكون العشّ موجوداً عليه، حدّق جونسون في الأوراق المشعّة المرتجفة وسط الرياح.

بوجود هذه الرياح، اضطرّ لأن يفرد جناحَيه.

كانت صرخة غريبة ترتفع في بعض الأحيان من أشجار الدردار الأخرى. صوتٌ غير مألوفٍ للغاية. لم يكن أيّ غرابٍ منها ينعق خلال الليل.

هذا أمرٌ غريب. انفتح منقار جونسون. أحسّ بالاختناق على نحوٍ مفاجئ، فلم يعد بوسعه أن يتنفّس.

قافزاً من غصنٍ إلى غصن، غادرَ مرّة أخرى للبحث عن العشّ.

انتهى إلى التساؤل: وماذا لو كان في المكان الخطأ؟ هل يكون قد تاه أثناء طيرانه في عالمٍ مختلفٍ تماماً؟ في عالمه هو، كانت شعاع أخضر تنتظره مع الفراخ في العشّ.

ملتفتاً نحو السماء الظلماء، أطلق صرخةً.

بين الأشجار المجاورة، كانت أشباحٌ أخرى تصرخ. لم يكن أيّ طيرٍ نائماً.

117

كانت الشمس توشك على الطلوع حينما غطَّ يويتشي أخيراً في النوم.

ما كاد ينام حتى رنَّ جرس المنبّه.

قال في نفسه: أوه كلّا، هذا صعبٌ جدّاً. لم يكن قد نام بما فيه الكفاية، ولن يصمد أبداً طوال النهار.

ثمّ إنّ الجوع كان ينهشه. تناول بأصابعه ما تبقّى من كفتة السمك المقلية والكرنب. رأى نودلز سريعة التحضير في خزانة المطبخ، ولكن خاف أن يغلي الماء؛ وفي نهاية المطاف، غادرَ إلى المدرسة دون أن يلمسها.

كان ذلك اليوم مخصَّصاً لدروس التربية البدنية، ولكنّ ثيابه الرياضية لم تكن مغسولة. كانت متّسخة وملطّخة بالوحل. قام بشمِّها. يا لها من رائحة كريهة تفوح منها! ولكن بما أنّه لم يكن لديه أيّ شيءٍ آخر يرتديه، دسّها في حقيبته المدرسية، بعد أن لفّها على شكل كرةٍ.

118

جالَ جونسون في الجادّة، في اتجاهٍ، ثمّ في الاتجاه الآخر، انطلاقاً من المحطّة وصولاً إلى الحيّ السكني وبالعكس. حطَّ على كلّ شجرة دردارٍ وصل إليها.

لم يعثر على عشه.

كانت الأعشاش كلّها قد اختفت.

على كلّ شجرةٍ، كانت هناك غربانٌ.

كان الوقت صباحاً، ولكن الغربان كلّها تحوّلت إلى أشباحٍ صامتة. متقوقعةً على نفسها، مخفيّة مناقيرها بين ريش صدورها.

119

استُبدِلَت الساعة الثانية من الدرس -الرياضيات- في اللحظة الأخيرة بساعة من المطالعة.

حينما رنّ الجرس، هرعَ الجميع نحو قاعة الدرس. كان يويتشي يلعب البيسبول من دون مضرب مع زملائه؛ كانوا قد عادوا معاً، خبباً.

كان المعلّم ينتظر في القاعة قبل وصولهم. وهو يمسك بكرّاسة الرياضيات في يده، أعلن لهم عن ساعة من المطالعة. ثمّ أشار إلى يويتشي، وعلى شفتيه ابتسامة مصطنعة، أن يلحق به إلى غرفة المعلّمين. كانت كلّ الأنظار مصوّبة عليهما.

حينما خرجا من الصفّ، دخلت معلّمة شابة لتحلّ محلّ المعلّم. ستكون هي مَن تراقب حصّة المطالعة. حينما لمحت يويتشي، زمّت شفتيها. لاحظ الصبيّ ذلك.

في الطريق، أطلق المعلّم تمتمةً مشوبةً بالحرج.

غمغم:

- غرفة المعلّمين كذلك، ليست مثالية... انتظرني دقيقة واحدة.

راح يُلقي نظرةً داخل قاعة العلوم.

صاح بطريقة طفولية بعض الشيء، وهو يشير على يويتشي أن يلحق به إلى الداخل:

- ها هنا.

كانت في القاعة صفوفٌ من المجاهر ومصابيح كحولية. على

الجدار، كانت هناك لوحة معلّقة لتشريح الجسم البشري، ومجسّم للأعضاء القابلة للنقل.

قال المعلّم وهو يسحب كرسياً للصبي:

- اصغِ إليّ جيّداً. ولا تفزع.

فكّر يويتشي بأنّه إذا كان المعلّم قد قدّم له كرسياً، فسيكون من الغريب أن يبقى واقفاً، ولذلك جلس.

- والدتك لم تعد إلى البيت البارحة مساءً، أليس كذلك؟

- لا.

- كيف تدبّرتَ أمرك لتناول العشاء؟

- كان هناك ما أتناوله.

- حسناً.

بعد برهةٍ قصيرة من الصمت، وضع المعلّم كرّاسة الرياضيات على مقعدٍ.

- يويتشي، هل تعرف أين والدك؟

- كلا.

هزّ الصبي رأسه نافياً وهو يُصالب ذراعيه.

- إنّه شرطي، أليس كذلك؟

- نعم، هذا صحيح.

- ولكن والدَيك انفصلا عندما كنتَ في السنة الثالثة...

- نعم.

كان يويتشي يصرّ على أسنانه. لم يكن يعلم إلى أين يريد المعلّم أن يصل، ولكنّه قرّر أن يتهيّأ للأسوأ.

- ألم تعد ترى والدك؟

- في السنة الرابعة، كنتُ لا أزال أراه. وكان يتّصل بي هاتفياً أيضاً.

- والآن؟

هزّ يويتشي رأسه.

أطلق المعلّم تنهيدةً، رافعاً عينَيه نحو السقف.

- لقد أسأتُ الحكم. لأنّ معلومات الاتصال الخاصّة به كانت مكتوبة في ملفك، اعتقدتُ بأنني سوف أستطيع الاتصال به في الحال.

- ولكن لم تستطع التكلم معه.

- بالضبط. من المستحيل الوصول إليه.

همّ المعلّم بإخراج علبة سجائره من جيبه، ولكنّه عدل عن ذلك.

يويتشي الذي كان عاجزاً عن النظر أمامه، وضع نظره على الهيكل العظمي الموضوع خلف المعلّم.

- ألا تعرف أين يعمل حالياً؟

- كلا. ثمّ إنّه توقّف عن دفع نفقة الإعالة.

- فهمت.

أخرج المعلّم من جديد علبة سجائره، التي أسرع في إعادتها إلى جيبه.

- يمكنك أن تدخّن.

- أوه، شكراً، ولكن كلا. أخبرني، هل لديك عائلة؟

عاينه المعلّم، مرتبكاً.

هزّ يويتشي رأسه نافياً في صمت.

- لا أحد؟

- ربّما، ولكنني لا أعرفهم.

- فهمت. في هذه الحالة، بمَن علينا أن نتّصل؟

- ماذا حدث لأمّي؟ أخبرني بما يحدث.

حانَ دور يويتشي لكي يعاينه.

فتح المعلّم فمه، جامد الوجه. ثمّ ربّت على كتفه بحركة خفيفة.

- لن تستطيع أن تعود في الحال. إنّها ليست جريحة، ولا مريضة، سوف تكون بخير، وسوف تستطيعان أن تُقيما معاً، فيما بعد. ولكن الآن...

- أستاذ؟

كزّ يويتشي على أسنانه بشدّة، فأصدرت صريراً.

- ماذا؟

- هل فعلَتها ثانية؟

- نعم. يبدو كذلك. ولكنني لا أعرف المزيد عن الأمر. سوف أذهب لأستعلم بعد انتهاء الدروس.

- إلى الشرطة؟

- نعم، إلى الشرطة.

- إذاً، لقد انتهى الأمر.

كان قلبه يدقّ بسرعة، لكنّه قطّب أنفه محاولاً تمالك نفسه، لأنّه بهذه الطريقة كان يبدو مبتسِماً. كان قد تدرّبَ على القيام بهذه الحركة أمام المرآة، في الأماسي، حينما كان وحيداً.

- ماذا تقصد؟

- لقد انتهت أمّي.

- كلا، يا يويتشي!

صاح وهو يبدي رزانة مصطنعة:

- انتهى الأمر. تمّ تحذيرها من قبل.

رفع عينَيه نحو السماء.

- لهذا السبب اضطرّ والدي إلى تقديم استقالته من الشرطة. . .

صالب ذراعيه وسكت، غير قادرٍ على مواصلة الحديث.

- تبّاً. . .

حنى رأسه وهو يضمّ ذراعيه بشدّة. سقطت دموعٌ على سرواله، على ركبتيه، وكرّر: «تبّاً، تبّاً. . .». اختفى الهيكل العظمي عن حقل رؤيته. لم يستطع أن يرفع رأسه.

- فعلاً هذا أمرٌ صعبٌ، يا يويتشي.

وضع المعلّم يده على كتف الصبي من جديد.

- سوف أبذل كلّ ما بوسعي.

- نعم.

- هل تريد العودة إلى الصفّ؟

هزّ الصبي رأسه نافياً بحركاتٍ خفيفة.

- إذاً، ليس عليك سوى أن تذهب وترتاح في المستوصف ريثما تصبح أفضل حالاً. وتعود إلى الكافيتيريا. هل هذا يناسبك؟

- نعم.

- هذا المساء، حالما تنتهي الدروس سوف أذهب لمقابلة

الشرطة. ولكنني لا أعلم إن كانوا سيسمحون لي بمقابلة والدتك. ومن ثمّ، بدءاً من اليوم... دعنا نرى. أنا أيضاً، هذه هي المرّة الأولى التي أجدُ فيها نفسي في هذا الوضع. سوف ينبغي عليّ أن أستعلم عن الموضوع.

نهضَ يويتشي بناءً على دعوة المعلِّم، دون أن يرفع رأسه. غادرا معاً قاعة العلوم. نسيَ المعلِّم كتاب الرياضيات على المقعد.

قال يويتشي في نفسه إنّه فزعٌ هو الآخر.

120

كم مرّة جال على جادة أشجار الدردار؟

واصل جونسون البحث عن العشّ دون جدوى.

مهووساً بهذه الفكرة، كان يحطّ مصطدماً بالأغصان.

حينئذٍ، وللمرّة الأولى، هاجم كائناً بشرياً.

هاجم رجلاً شابّاً يرتدي قميصاً رمادي اللون، كان يقف على رصيف جادة أشجار الدردار. حلّق جونسون فوق رأسه. ما أن وقعت عيناه على قميصه، انهالت عليه الذكريات.

الفراخ المرمية على الأرض. شعاع أخضر المسحوقة أرضاً.

أحسّ أنّه قد أُعيد إلى الوراء.

أشعّة الضوء المتقاطعة. الأذرع المعدنية. شبكة الصيد.

الجناحان الصغيران لزوبعة.

البشر!

راحَ جونسون يجثمُ على الأغصان.

كان الرجل يتقدّم، مديراً له ظهره.

أطبقَ جونسون منقاره وانطلق من الشجرة بسرعة جنونية مثل السهم.

اقترب ظهر الرجل منه.

باعدَ جونسون بين مخالبه.

فردَ جناحَيه، واستعدّ لأن ينقضّ على رقبته.

ارتطم به بقوّة وبشكلٍ مباشر. غاصت مخالبه في مؤخِّرة رأسه.

سقط الرجل على ركبتَيه، مطلقاً صرخةً.

خافقاً بجناحَيه، قرصَ جونسون بين فكّي منقاره الأصابع التي كانت تحمي رأس الرجل.

فأطلق هذا الأخير ساقَيه للريح وهو يصيح.

لحقَ به جونسون وهو يخربشه بمخالبه من دون توقّف.

121

أمضى يويتشي ساعة كاملة مستلقياً في المستوصف.

يبدو أنّ الممرّضة قد أُخبِرَت بالأمر، فقد غطّته بغطاءٍ خفيفٍ وهي تتمتم: «الأمور ليست على ما يُرام، أليس كذلك؟». اندسّ الصبي تحت الغطاء دون حتى أن يومئ بالموافقة، ولم يعد يتحرّك.

كانت المدرسة تهتزّ بأصوات ضحكات وأناشيد التلاميذ.

تحت الغطاء، كان يويتشي يعضّ إبهامه.

يفعل ذلك لكي يمنع نفسه من الانهيار.

كان ذلك مؤلماً على نحوٍ فظيع، ولكنّه يتيح له أن يحبس دموعه. كما يسمح له بألّا يحقد على التلاميذ الذين كانوا يضحكون، كما بدا له.

في الاستراحة التالية، غادر المستوصف.

قال:

- سوف أعود إلى الصفّ.

ربّتت الممرّضة على ظهره متمنّية له التوفيق.

وصل يويتشي إلى الممرّ، وخطا بضع خطوات نحو قاعته الدراسية، ثمّ، متظاهراً بالذهاب إلى المغاسل، هرع خلف المطابخ. جاثياً خلف الجدار، انتظر أن يرنّ الجرس لكي يهرب من المدرسة.

122

هاجمَ جونسون بشراً، واحداً تلو الآخر.

كان ينطلق من بين أوراق الشجر نحو الأسفل لكي يخدش بمخالبه ظهور المارّة.

تحت تأثير الصدمة، كان معظمهم يسقطون على ركبهم أو يفرّون من المكان جرياً. وإذا ما توقّفوا، انقضّ على رؤوسهم، وكلّ مخالبه في الخارج. ومن كان يفرّ منهم، يلحق بهم.

سريعاً، وصلت سيارة شرطة. يتبعها موظّفون من البلدية.

كانوا مزوَّدين بشبكة كبيرة، يعرفها جونسون من ذي قبل. والمصيدة مثبّتة على قضيبٍ معدني.

ما أن لمح جونسون الشبكة، عادت إلى ذاكرته من جديد صور موت شعاع أخضر وتحرّكَ مبتعداً. متخفيّاً بين أوراق شجرة الدردار، تقوقع على نفسه، مذعوراً.

نعم.

بالطبع.

لم تعد شعاع أخضر هنا. كانت قد أُسِرَت بهذه الشبكة، وسُحِقَت على الأرض. أُشبِعَت ركلاً بالأقدام، وحُطِّمَت. نظرت إليه آنذاكِ، وعيناها بلا قوّة.

لم تعد شعاع أخضر من هذا العالم.

والفراخ كذلك.

تألّمَ جونسون ألماً رهيباً، كما لو أنّ جسمه في النار. أحسّ بأنّه على وشك الاحتراق، مكوّماً على نفسه.

كانت ذاكرته، الأكثر تطوّراً من بين كلّ الطيور، تنقلب ضده.

تقوده أفكاره دون توقّف إلى تلك اللوحة الجهنّمية.

123

ركضَ يويتشي حتى وصل إلى المجمّع السكني وقفز درجات السلّم كلّ أربع درجات دفعة واحدة.

ولأنّه كان قد ترك حقيبته المدرسية في المدرسة، لم يكن مفتاحه معه، ولكنّ نسخة من المفتاح كانت مخبّأة تحت أصيصٍ للأزهار على شرفة السطح، احتياطاً. وكانت ريتسوكو قد قرّرت اتّخاذ هذا التدبير، تحسّباً لضياع مفتاحها لأيّ سببٍ كان.

عثر على المفتاح دون عناء.

فتح الباب، وألقى بحذائه الرياضي كيفما كان في الممرّ وهرع نحو المكتبة. ودون أي تردُّد، أمسك بالموسوعة المصوَّرة الخاصّة بالأسلحة اليدوية، الموضوعة في أعلى رفٍّ.

وكان قد اقتنى هذا الكتاب في آخر مرّة قابل فيها والده.

تصفّح الموسوعة.

كانت بطاقة تعريف محصورة بين صفحتَين منها.

في الحقيقة، كان الصبي يعرف كيف يمكنه الاتصال بوالده. مساء اليوم السابق، حينما لم ترجع والدته إلى البيت، كان على وشك أن يتّصل به.

ولكنّه قاوم تلك الرغبة.

كان والده قد أعطاه بطاقة التعريف خاصّته لكي يتّصل به في حال دعت الحاجة إلى ذلك، لكن يويتشي كان قد أسقط والده من حساباته، وقرّر أن يُقنع نفسه بأنّه ليس موجوداً. قال في نفسه: لا أب، لا غمّ.

ولكن الآن، كان الوضع قد تغيّرَ جذرياً.

كان عليه أن يتّصل به، لكي ينجو بنفسه. فليس لديه ما يأكله هذا المساء.

لم يكن يويتشي قد أدخل قط رقماً مسجّلاً على بطاقة تعريف في الهاتف، ولكنّه قرّر أن يتشجّع وأن يُجرِّب حظّه.

قد أخبره والده بأنّه أسّسَ شركةً تجارية صغيرة. في مجال الاستيراد والتصدير.

وهو يرفع السماعة، قال في نفسه: اهدأ! وهو يثبّت عينَيه على بطاقة التعريف، ضغطَ بإصبعٍ حازمة على الأزرار واحداً تلو الآخر. بعد برهةٍ، ارتفع صوتٌ نسائيٌّ مسجّل: «إنّ الرقم المطلوب ليس في الخدمة حالياً. شكراً للتأكّد من الرقم...».

كان ذلك أمراً غريباً. ربّما ارتكب خطأً في إدخال الرقم. انتابه الجزع.

جعل الفزع يدَيه تتعرّقان؛ مسحهما على سرواله. ومن ثمّ، أدخل من جديد رقم الهاتف، وهو يضغط على الأزرار بهدوء وانتباه. تلقّى العبارة نفسها: «إنّ الرقم المطلوب ليس في الخدمة حالياً. شكراً لـ...».

أعاد إدخال الرقم خمس مرّات.

ثمّ أعاد بطاقة التعريف إلى الموسوعة المصوَّرة. فكّر برهةً، ثمّ ألقى بكلّ شيء في الحاوية.

جلبَ كرسيّاً وصعد لكي تصل يده إلى أعلى الرفّ.

كانت حصّالته هناك. حينما أزال الغطاء المطاطي، نزل منها فيضٌ من القطع النقدية. كان بينها حتى قطع من فئة خمسمئة ين. ممدّداً على الأرض، قام بعدّ النقود: ثلاثة آلاف ين.

توجّه بعد ذلك إلى المطبخ.

أخرجَ علبة النودلز سريعة التحضير من الخزانة، وأشعلَ الموقد الغازي مع صيحةٍ خفيفة. لم تكن تلك مهارته. وأخيراً، وضع النودلز بوعاء ماء ثم على النار بيدٍ حازمة.

124

كان الألم الشديد الذي سرى فيه قد أنهكه.

أحسّ أنّ أوراق شجرة الدردار ترتعش، وأنّ النسيم يهبّ، وأنّ شظايا تتلألأ في بقع الضوء.

ولكن ماذا عساه أن يكون هذا؟

لم يعد من معنى لأيّ شيء.

دار جونسون عدّة مرّات في السماء فوق جادة أشجار الدردار. خفق بجناحيه، وبطنه يكاد يلامس قمّة الأشجار؛ وحلّق حتى فوق المحطّة.

كانت الأرصفة تعجّ بالناس. ولكن لم تعد رؤية الناس توقظ أيّ إحساسٍ فيه. بل لم يعد يشعر حتى بالحاجة إلى مهاجمتهم.

ولكن عندما ارتفع في الأجواء، دخل البرج المنتصب في قلب المدينة إلى حقل رؤيته. حمله جناحاه بصورة طبيعية في ذلك الاتجاه.

وشرعت الشمس، التي كانت قد بلغت سمتها، بانحدارها نحو الغرب.

كان البرج الفضّي يسند السماء الزرقاء.

125

عندما أنهى يويتشي طبق النودلز، رنّ الهاتف.

قال في نفسه دون أن يرفع السمّاعة إنّ المتّصل هو المعلم على الأرجح.

ظلّ الهاتف يرنّ كلّ خمس دقائق.

بدلاً من أن يُعيد القطع النقدية إلى حصّالته، ألقى بها يويتشي في قاع كيس.

علّق الكيس على كتفه، وانتعل حذاءه. أمسك بمضرب البيسبول المعدني الموضوع في سلّة المظلّات.

أقفلَ الباب من ورائه ونزل درج البيت ببطءٍ. في الخارج، توجّه مباشرةً نحو قفص حاويات القمامة.

كان سيحطّم أخيراً هذا الشيء الذي تحمّله لوقتٍ طويلٍ. بدا له أنّ هذه أفضل وسيلة للالتحاق بأمّه.

عدا عن بضع سيّدات يمررن وهنّ محمّلات بأكياس من المواد التموينية، كان الهدوء يسود في المجمّع السكني. كان الغسيل ينشف على الشرفات، وفي بعض الأحيان، صوت تلفازٍ يرشح من البيوت.

دون أن يرفّ له جفن، أخذ يويتشي موقعه أمام فخّ الغربان.

ضمّ مضرب البيسبول بين يدَيه.

126

لم يعد السرب الكثيف موجوداً بالقرب من البرج.

كانت الغربان تطير على نحوٍ متبعثر. لم يعد هناك لا نظام ولا تراتبية. تكتفي بخفق جناحيها، شبيهة ببقعٍ مبعثرة.

البرج، وأشعّة الشمس التي كان يجذبها إليه.

من أين ما نظرت إليه، كان يُلقي انعكاسات مبهرة.

وحده جونسون كان يطير راسماً دوائر حوله.

شيئاً فشيئاً، اقترب منه.

127

كان ذلك مفاجئاً.

مزّقَ صخبٌ معدني فترة ما بعد الظهيرة في المجمّع السكني.

جلبةٌ حقيقية، ناجمة عن تتالي الضربات.

ظهرَ السكّان، الذين عجزوا عن تحديد ماهية هذه الضجّة، على شرفات منازلهم بعضهم تلو بعض.

ما رأوه كان عبارة عن فخّ غربانٍ منصوبٍ في قفص حاويات القمامة يتحطّم تحت ضربات مضرب فتى صغير.

صاحت به امرأةٌ تعرفه بالنظر:

- توقّف، ماذا تفعل!

كان يويتشي محمرّ الوجه حنقاً. كان التلميذ ينهال بالمضرب كما لو أنّه يصبّ جام غضبٍ مكبوتٍ منذ قرونٍ من الزمن.

طار القفل المعدني المثبّت لغطاء الفخ. رماه الصبي وانهال ضرباً على المسامير المحيطة بالفتحة.

- توقّف!

ارتفعت الآن أصواتٌ من عدّة شرفات. ولكنّه تجاهلها.

في نهاية الممر، ظهر الحارس وهو يركض. صرخ في الصبي:

- ما هذا؟ ماذا تفعل؟

كانت صرخته قويّة جدّاً بحيث اهتزّ زجاج الشرفات المجاورة.

ألقى عليه يويتشي نظرة خاطفة.

ثمّ هوى من جديد بمضربه.

128

اقترب طيرٌ فجأةً من البرج.

الغربان التي كانت تراقبه بطرف عينيها وهي تخفق بأجنحتها، أطلقت نعيقاً تدلُّ على دهشتها.

كان قد دخل إلى المنطقة التي سيجرّ عليه اقتحامها ردود فعلٍ انتقامية، لو أنّ ذلك حصل قبل فترةٍ وجيزة.

ولكن لم يعد أيّ طيرٍ في حالة تسمح له باعتراضه.

بعد أن تشتّت شمل السرب، فقدت الطيور حتى المبادئ التي كانت تتشارك فيها سابقاً. بالطريقة نفسها التي لم تعد تطير بشكلٍ موحّد، انخفضَت درجة الحذر والانسجام بين الغربان.

وبهذه الطريقة انحرف جونسون عن الطريق.

لقد أخلّ بالقواعد التي كانت تربط الغربان بالبرج.

كان جونسون طيراً منعزلاً.
طيرٌ منفردٌ يشقّ بجناحَيه السماء.
طيرٌ أسود موهوب بذاكرة ومشاعر، قتلوا له زوجته وأطفاله.
طار جونسون إلى أقرب مسافة من البرج.
واكتشف الطبيعة الحقيقية لهذه الأشياء التي كانت تعكس أشعّة الشمس.
يكمن خلفها بشرٌ.
حشودٌ من البشر، على الجانب الآخر من الانعكاسات.
لم يكن مخطئاً.
كان قد سبق له أن لمحهم في أعماق البرج. ففي اليوم الذي اقترب منه كثيراً، اكتشف وجود أشباح بشرٍ خلف الضوء. ولكنّها كانت ذكرى مكبوتة في داخله، مقنعاً نفسه بأنّ الأمر يتعلّق بوهمٍ.
مع ذلك، كان قد رأى بالفعل.
كانت الأشياء التي تعكس أشعّة الشمس هي زجاج نوافذ.
نوافذ مزجّجة، مثل تلك الموجودة في بيت يويتشي.
كان البرج يضمّ بشراً.
طار جونسون على حافة المبنى، فوق الجدران والنوافذ. في بعض الأحيان، كان يؤخَذ بعيداً، في مهبّ زوبعة، ولكنّه يعود دائماً كما لو أنّ مغناطيساً يجذبه.
مرتفعاً تدريجياً نحو الأعلى.
مقترباً من القمّة.

129

تلقّى يويتشي صفعةً قويّة من الحارس، ثمّ انقضّ عليه رئيس جمعية السكّان بعنف وثبّت ذراعَيه خلف ظهره.

ترك نفسه بين يديهما، دون أن يبدي مقاومةً. أمسكا بذراعه المُلوية، فظلّ صامتاً، خافضاً رأسه.

- لقد استدعيتُ الشرطة.

لم يكن الحارس في حاجة إلى إعلان ذلك، فقد اقترب صوت صفّارة الإنذار لسيارة شرطة.

كان مضرب البيسبول مرمياً أمام الفخّ المحطّم.

وكان رئيس الجمعية يتنفّس ويلهثُ بصخب. ربّما يعاني من ألم في حلقه لأنّه يبلع ريقه دون توقّف.

تجمّعت حشودٌ من السكّان على الشرفات.

- هل كان من الضروري أن تتدخّل الشرطة؟

احتجّت امرأةٌ، معترضةً طريق الرجلَين.

ردّ رئيس الجمعية من فوق رأس يويتشي حتى دون أن يلتفت إلى السيّدة التي خاطبته، قائلاً:

- إنّ ابن امرأة سارقة هو سارقٌ محتَمَل.

وصلت سيارة الشرطة إلى المكان. دار الضوء الأحمر لمصباح صفّارة الإنذار أمام المجمّع السكني.

130

كم من مرّة أفقدته الزوابع توازنه؟ لقد أضاع الحساب.

كانت تُبعده في بعض الأحيان عن البرج، أو على العكس تجذبه نحو جدرانه، وجناحاه إلى الأمام.

وصل جونسون أخيراً إلى القمّة.

رسم حلقة حولها وهو يطير ببطء.

كانت الشرفة تعجّ بالبشر. أشار بعضهم إليه بإصبعهم.

ربّما كان من النادر رؤية غرابٍ من هذه المسافة القريبة، فوق ناطحة سحابٍ مباشرةً، لأنّ الجميع كانوا يبتسمون، مجرّدين من أدنى درجات العداوة.

ثنى جونسون جناحَيه قليلاً وتوجّه نحو نافذة في الطابق الأسفل.

كانت نافذة مكتب رئيس البلدية.

سبب وجوده هنا.

لأنّ وجهة نظره عن البرج تغيّرت جذريّاً.

عند ولادة الفراخ الثلاثة، جاء ليبثّه فرحه.

وماذا كانت النتيجة؟

فكّر جونسون وقد استحال إلى ظلٍّ وسط أوراق شجرة الدردار.

إذا كان هذا البرج العملاق مرتبطاً بقدرات السماء، لماذا سمح بحدوث هكذا نتيجة؟

وفي الحال، عادت إلى ذهنه ذكرى البشر الذين لمحهم خلف الضوء المنعكس.

وفي لمح البصر، تغيّر انطباعه عن البرج رأساً على عقب.

تعبّر الغربان عن رأيها من خلال الصور. وتتلقّاها كذلك.

انفتحت عينا جونسون واسعتَين. كان يرى البرج تحت ضوءٍ جديد.

ينبعث منه، في كلّ الطوابق، شيءٌ غير متوافق مع السماء، والغيوم، وأشعّة الشمس. ينبثق منه، في صرخة رهيبة، تعطّشٌ إلى السلطة، وإلى التدمير، وإلى القوّة.

اتّقد في قلب جونسون شعورٌ جامح.

الكراهية.

والشخص الذي يكره ينطلق بحثاً عن الكراهية التي ولّدت كراهيته.

كان جونسون قد صعد إلى المصدر.

غادرَ رئيس البلدية مقعده بحركاتٍ حذرة. مرتاباً، نظر إلى جونسون وهو يخفقُ بجناحَيه بالقرب من نافذته تماماً.

كان جونسون، هو الآخر، يتفرّس في الرجل على الجانب الآخر من زجاج النافذة.

عبسَ رئيس البلدية. ورسمَ التكشيرة نفسها التي بدرت منه أمام سرب الغربان.

ظهر حقده على الغربان واضحاً لا لبس فيه.

فهمَ جونسون الرسالة.

حينها، ابتعد ببطء، مستجمعاً كلّ قواه في جناحَيه، وشقّ الأجواء.

131

ألقى عليه المعلّم، الذي كان قد وصل لتوّه إلى مركز الشرطة، نظرة خاطفة قبل أن يتوارى في غرفة أخرى مع شرطيَّين.

لم يكن يويتشي قد اقتيد إلى قاعة للاستجواب؛ بل أُجلسَ أمام ضابط شرطة كبير في السنّ، ومن حولهما رجال شرطة ومحقِّقون منهمكون في عملهم.

كانت طاولة المكتب رماديّة اللون.

فوق الطاولة، طبقٌ فيه سكاكر بالشوكولا وعلبة لعصير الفاكهة.

قال ضابط الشرطة ذو الشعر الأبيض إنّه يعرف والد يويتشي.

لدى وصوله إلى مركز الشرطة، كان الصبي قد تعرّضَ للتوبيخ من قبل شرطي شابّ. ولكن بعد ذلك، جاءَ أحد زملائه وقدّمَ له بعض الشوكولا. ثمّ حضرَ هذا الشرطي الأكبر سنّاً.

كان سؤاله الأوّل:

- هل أردتَ مقابلة والدتك؟

هزّ يويتشي رأسه، دون أن ينظر إليه وجهاً لوجه.

- ومع ذلك، تصرّفتَ بطريقة عنيفة بعض الشيء.

هزّ الصبي رأسه موافقاً من جديد.

- في الماضي، ألقينا أنا ووالدك القبض على بعض الأشرار. كان رجلاً صالحاً ومستقيماً. لهذا السبب لم يتحمّل توقيف والدتك، آنذاك. لقد ترك الخدمة في الشرطة. يبدو أنّك على علمٍ بكلّ هذا.

- نعم.

أبقى يويتشي، ويداه فوق ركبتَيه، رأسه منحنياً.

- لو علم بما فعلت، سوف يتألّم لذلك.

ما العمل؟ كان متردِّداً.

هل كان عليه أن يتحدّث عن ذلك؟ تحرّكت شفتاه دون أن يتّخذ أيّ قرار.

- لن يعلم ذلك.

- ولماذا؟

نظر إليه الشرطي وهو يشرب جرعةً من الشاي.

- لأنّه من غير الممكن الوصول إليه. اليوم، عندما حاولت الاتصال به، تبيّن لي أنّ الرقم لم يعد في الخدمة.

- حقّاً؟

وضع الرجل فنجانه والتزم الصمت لبرهةٍ.

- هل تودّ أن أبحث عنه؟ سوف نعثر عليه سريعاً. في كلّ الأحوال، نظراً إلى وضع والدتك، لا بدّ أن يهتمّ أحدٌ بأمرك. سيكون هذا صعباً بالنسبة إليها، ولكن بما أنّه تمّ تحذيرها من قبل، هذه المرة، لن تستطيع أن تعود في الحال. وستكون في حاجةٍ إلى شخصٍ بالغٍ إلى جانبك خلال هذه الفترة. إذا أمكن، أحدُ أفراد عائلتك. وبرأيي، والدك هو المرشّح الأفضل لهذا الأمر.

لم يجب يويتشي بأيّ شيء.

- سوف نبحث عنه، اتّفقنا؟

- كلا.

- هل تكرهه؟

- كلا .

- ماذا إذاً؟

- ليس لديّ أب .

بدا الشرطي حائراً .

- في هذه الحالة، سوف تُرسَلُ إلى دارٍ للرعاية. سوف تذهب إلى المدرسة، ولكن سوف تعيش هناك .

- نعم .

- هل تريد أن تنتظر عودة والدتك هناك؟

أجاب يويتشي دون تردُّد :

- نعم .

- فهمت .

- أو بالأحرى كلّا .

اضطربت نظرة الشرطي؛ تفرّس الصبي من جديد .

قال يويتشي ما كان يعتقده بالفعل :

- لا أعلم. أنا ضائع .

132

كانت الشمس منخفضة على الأُفُق .

قمة البرج. سهمه المنتصب الذي يصفّر وسط الريح .

كان جونسون قد ثنى جناحَيه أسفل مانعة الصواعق، ومخالبه متشبّثة بشدّة بنتوءات العَمود المعدني. لو أنه تراخى في انتباهه، لحملته الرياح في هبّة واحدة .

البرج العملاق.
هذا الرمز القوي الذي كان قد احترمه، وبجّله.
أبقى جونسون عينَيه مثبّتَتين لوقتٍ طويل على مانعة الصواعق. حدّق فيها بلا انقطاع.
أخيراً، جالَ ببصره على أنحاء المكان.
لمحَ المحطّة من بعيد. والقطارات التي كانت تسير على الخطوط الحديدية. وعلى نحوٍ متعامد مع الخطوط الحديدية، توجد جادة أشجار الدردار. وكان صفّ الأشجار يوازي مسارها المستقيم.
في الغرب، تزيّنت السماء بألوانٍ مائلة إلى البرتقالي. وتلوّنت جادة أشجار الدردار شيئاً فشيئاً بالألوان نفسها.
متقوقعاً على نفسه، حفرَ جونسون هذا المشهد في ذاكرته.
بات غروب الشمس وشيكاً. سوف ترتسمُ ألوانٌ أكثر بهاءً في السماء.
قال في نفسه إنّ هذه الصورة ستكون الذكرى الأخيرة له.

133

كانت تفوح من سيارة المعلّم رائحة التبغ.
أخذَ يويتشي مكانه إلى جانب السائق مع تكشيرة تنمّ عن التقزُّز.
- سوف يمكنك البقاء في المدرسة نفسها. حتى بعد انتهاء كلّ هذا.
لا شكّ أن المعلّم أراد أن يُطمئنه.
ولكن ما أضافه رنّ على نحوٍ مزعجٍ في أُذني الصبي:

- سوف نبحث عن والدك. حتى إن لم تذهب للعيش معه، نحتاج إلى الوصول إليه. أنا أيضاً، يجب أن أعرف أين يمكن العثور عليه.

- أووف، لا داعي لذلك.

دسّ المعلّم سيجارة بين شفتيه وهو يقود سيارته.

- أووه!

واستعجل في إعادتها إلى جيب قميصه.

- يمكنك أن تدخّن.

- أفضّل أن أمتنع عن ذلك، ثم إنّ، يا يويتشي...

- نعم؟

- سوف يكون هناك يومان أو ثلاثة أيام من المماطلة. أقصد، سوف أفعل ما بوسعي بحيث لا يُتّخذ أيّ قرار. وبدل الاستعجال، أفضّل أن ندرس مختلف الاحتمالات.

سأل الصبي وهو يضغط على الزرّ لإنزال زجاج النافذة:

- أن تعود والدتي، على سبيل المثال؟

لم يكن هناك ما يُقال، ففي سيارة مدخّنٍ، تفوح الروائح النتنة. بدأ يشعر بآلامٍ في الرأس.

- لا أعتقد أنّها تستطيع العودة في الحال.

- هل تعتقد أنّهم يقدّمون لها الطعام؟

- أشكّ أن تكون شهيّتها مفتوحة، وهي تفكّر بك. باختصار، ستقضي يومَين أو ثلاثة في بيتي.

- هل أنت جادّ فيما تقول؟

- نعم، جادّ جدّاً.

ألقى المعلِّم، ويداه على المقود، نظرةً على الصبي مع ابتسامة عريضة.

- لا تقلق وتعال معي إلى البيت. لديّ ابنٌ يكبرك بسنتَين، ولكنّه صبيٌّ طيّب.

نظر يويتشي من نافذة السيارة، دون أن يُجيب.

أوشكت الشمس على الغروب. تلألأت نوافذ المنازل وأوراق الأشجار تحت أشعّتها البرتقالية.

- إذاً، سأمرّ هذا المساء لاصطحابك؛ أيّ ساعة تناسبك؟ سوف تتناول العشاء معنا.

- في الساعة الأكثر تأخُّراً قدر المستطاع.

- إذا كنت ستتناول الطعام معنا، من الأفضل أن تأتي باكراً.

- هذا المساء، سوف أتدبّر أمري بالنسبة إلى الطعام. لديّ بعض التحضيرات التي ينبغي القيام بها.

- ولكن. . .

- لن يعود بوسعي أن أعود إلى بيتي، أليس كذلك؟ حالما أغادر البيت.

- بلى، ربّما تستطيع العودة.

كانت الإشارة حمراء، والسيارة متوقّفة. كان بإمكان المعلِّم أن ينظر إلى يويتشي وجهاً لوجه، ولكنّه لم يستطع فعل ذلك.

- لديّ ما أقوم به.

- حسناً. إذاً، لنقل نحو الساعة الثامنة مساءً؟

- اتّفقنا.

لم يفتح الصبي فمه بعد ذلك.

ظلَّ صامتاً إلى أن نزل من السيارة أمام المجمّع السكني.

134

حينما وصلت ألوان الشمس الغاربة إلى مانعة الصواعق، أفردَ جونسون جناحَيه.

رفعته زوبعةٌ في الحال. دار دورةً حول نفسه في الأجواء قبل أن يستعيد وضعيته، في وجه الريح.

جاعلاً عضلات ظهره تنتصب، خفقَ بكلّ قوّة بجناحَيه.

وبما أن الرياح كانت تهبّ من الغرب، طار مثبّتاً عينَيه على الشمس التي كانت تغرق في الأُفُق.

واصلَ صعوده بزاويةٍ حادة.

عند كلّ طبقة يجتازها، يصبحُ الهواء الذي يضرب جناحَيه أكثر برودةً.

أصبح البرج خلفه، خارج حقل رؤيته.

جادة أشجار الدردار تحت أنظاره.

عكسَت الأشجار ضوء الشمس الغاربة، وكان يسيرُ بينها رتلٌ من السيارات التي تلمع هي الأخرى بانعكاس الضوء.

كانت الغربان الأخرى معشعشة بين تلك الأغصان، في الأسفل تماماً. متقوقعةً على ذكرياتها، وأفكارها متعلّقة بعشّها الضائع.

خفّق جونسون بجناحَيه على نحو أقوى. عبر طبقة رقيقة من السُّحب.

لم يسبق له أن ارتفع إلى هذا العلوّ في السماء.

شعّت الشمس، الرائعة، بطيفٍ واسعٍ من الأشعّة الجميلة. لكنّ الهواء كان بارداً.

ومع ذلك واصلَ الطيران.

135

خرج يويتشي إلى الشرفة، ونظر منها بثبات إلى الشمس الآيلة إلى الغروب.

كم من الذكريات على هذه الشرفة!

هنا، حارب هو وأمّه من أجل حماية الغراب الصغير.

في ذلك اليوم، حلّق جونسون في السماء على نحو مستقيم.

أحزنه أن الطير لم يعد أبداً. ولكن ربّما كان هذا أفضل. لأنّه لو عاد، جائعاً، ووقع في الفخّ، لكان الأمر فظيعاً.

كان قد انتظر عودته، واقفاً في البرد.

بدا له أنّه تصرّف بشجاعة.

قال في الفراغ:

- نعم. لقد تصرفتُ بشجاعة.

ثمّ عاد إلى الغرفة.

جونسون، الفرخ الصغير في قفصه الكرتوني. كلاهما يلعبان

معاً على أوراق الجريدة المفروشة على الأرض. فضلات الطير الصغير على الطاولة وتهويل أمّه.

مع فكرة أنّ كلّ ذلك قد انتهى، جاش فيضٌ من الذكريات في داخله.

الأيام التي تغيّب فيها عن المدرسة، لكي يبقى في المنزل ويتكلّم مع الغراب الفرخ في قفصه الكرتوني.

جونسون الذي، بعد أن انفصل عن أسرته، وجدَ نفسه يعيش مع البشر.

حالةٌ ذكّرته بحالته هو، ولذلك، سانده بكلّ قواه.

- ولكن لقد انتهى كلّ ذلك. وداعاً!

دخل يويتشي إلى المطبخ وفتح باب الخزانة.

في داخلها، كانت هناك حبال رفيعة لحزم الطرود. أمسك بها وتفحّصها، ممدودةً بين يديه.

136

ظلّ جونسون يطير، وقد تجمّد جناحاه من البرد. بدأت رؤيته تتغبّش.

كانت السماء قريبة جدّاً. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يكوّن فيها هذه الفكرة.

الآن وقد اختفى الضوء، حالت السماء نحو الأزرق الداكن.

تلألأت بعض النجوم، وهي في متناول جناحَيه.

سيكون الأمر على ما يُرام.

كبحَ جونسون صعوده.

أفردَ جناحَيه.

رسم منعطفاً واسعاً.

تحت أنظاره، كانت المدينة المصطبغة بلونٍ أحمر داكن تومض.

وإذا بدت له تتأرجح، فذلك بسبب هبّات الريح التي كانت تحرِّف اتجاه الضوء، لكثرة ما ارتفع عالياً في السماء.

هذا العالم.

حفرَهُ في ذاكرته.

هذا الكوكب الذي كان يتهيّأ لأن يغرق، الساطع بآلاف الأشعّة.

كان اتّصاله الأوّل معه هو لمعان إبَر شجرة أرز الهيمالايا.

هذا العالم.

ثنى جونسون جناحَيه ببطء.

ثمّ تحوّلَ إلى مغزلٍ أسود.

كانت عيناه فقط مفتوحتَين.

مشرعاً طرف جناحَيه للريح، اندفع، ومنقاره إلى الأمام.

عصفت الريح بأذنيه.

كانت كلّ طبقة هواء ترتطم به تنتزع منه ريشاً يتناثر في الجوّ.

في كلّ حياته، لم يسبق له أبداً أن جرّبَ هكذا سرعة.

متحوِّلاً إلى كتلة صوتية، تهاوى جونسون. بمحض إرادته الحرّة.

شعر أنّ عينَيه ستتحطّمان تحت ثقل الهواء. بدا أنّ الضغط جاهزٌ لكي يمزّقهما إرباً.

رغم ذلك، ظلّ ينظر.

البرج الذي لم يعد يعكس سوى خيوط شاحبة من الضوء.

هذا البرج الذي كان سيذهب ليتحطّم عليه، موضوع كراهيته.

لبرهةٍ، اعتقد أنّه يلمح جادة أشجار الدردار.

وجه زوبعة، المتروك لوحده، وهو يحاول الفرار.

ارتعاش جناحَيه الصغيرَين.

لم يعد جونسون يشعر حتى بالضجيج.

متحوِّلاً إلى ذاكرته، واصل شقّ السماء.

هذا الغراب المنطلق وسط الأجواء، لا شكّ أن لا أحد يراه.

كان جونسون بعيداً جدّاً.

ما يراه في جسده الممزّق لم يكن لا الصخب، ولا روحه.

ولا مانعة الصواعق فوق البرج.

ولا مكتب رئيس البلدية.

كانت شعاع أخضر.

شعاع أخضر في ذلك اليوم، عندما أوشك على أن يموت بين العشب.

تلك التي أنقذته من الجوع وطارت بشموخٍ أمامه.

«تعال!».

شعاع أخضر!

ولكنّها اختفت في غمضةِ عين.

واصل جونسون الطيران وسط الظلمات التامة.

عتمةٌ لم تكن مجهولةً بالنسبة إليه.
كان يعرف هذا المكان.
هذه الظلمات، سبق له أن عبرها لمرّات كثيرة.
إنّه السواد المطلق.

137

أعدّ يويتشي عقدة مشنقة من الحبال.
هل كانت الفتحة واسعة بما يكفي لإدخال رأسه فيها؟
ومن ثمّ صعد إلى سطح الطاولة.
ممسكاً بطرف الحبل، بحث عن نقطة تعليقٍ في السقف. ولكن لم يكن هناك سوى مصباح السقف. لا يوجد أيّ نتوء يمكن تعليق الحبل به.
وهو لا يزال يُمسك بالحبل في يده، وصل إلى المطبخ.
نظر من حوله، دون أن يجد أيّ شيء مناسب.
فوقع بصره هناك على الكيس الورقي بجانب المغسلة، الكيس الخاص بالفوارغ البلاستيكية القابلة لإعادة التدوير. كان يحتوي على علب وجباته التي تناولها خلال الأسبوع. العلب البلاستيكية للوجبات الجاهزة المجلوبة من المتجر الكبير.
لم أتناول سوى وجبات جاهزة.
فجأةً، جعلته هذه الفكرة يشعر بالمرارة.
ولكنّه لاحظ شيئاً آخر: لم تكن أمّه تأكل منها أبداً. لم تكن تشتري تلك الوجبات إلّا له.

- ماما!

ترك نفسه يسقط أرضاً.

- ماما!

في المطبخ المعتم، انهارت قواه فجأةً.

حاول أن يبكي دون صوت، لكنّ صدره المهتزّ ترك تنهُّداته تفلت.

مقطوع الأنفاس، جرَّ نفسه حتى وصل إلى الصالون.

- ماما...

عاجزاً عن الصعود إلى الكرسي، انهارَ أمامه.

لم يعد يعرف ماذا عليه أن يفعل.

أطفأ النور وواصلَ البكاء وسط العتمة.

متشبّثاً بأحد قوائم الكرسي، بكى يويتشي، وهو يردِّد: «ماما، ماما».

138

كان جونسون يطير وسط عتمة حالكة.

لم يعد يرى جسمه. اكتفى بأن يطير إلى ما لا نهاية وسط الظلام.

كان يعلم أنّ الظلمات سوف تنجلي.

أجل، طالما أنّه رأى ذلك مراتٍ عديدة.

فكّر في نفسه بأنّه سيزول.

قبل قليل، بعد شعاع أخضر، رأى ذات الجناح الكبير.

على الرغم من العتمة الحالكة جدّاً بحيث لم يكن من الممكن لا تمييز الأعلى ولا الأسفل، طارت ذات الجناح الكبير إلى جانبه.

كانت تمسك بين فكّي منقارها قطعة حلوى دسّتها في منقاره.

وعلى نحوٍ مدهش، شاهد لبرهة قصيرة ظهور كاك وسارق، المنبثقَين من ذكرياته كفرخ. أعطت زقّة الطعام لكلّ فرخ.

وسط الظلمات، استسلمَ جونسون للريح لتحمله.

فقدَ ذات الجناح الكبير من حقل رؤيته، ولكنّه واصل الطيران.

شيئاً فشيئاً، أصبح شفّافاً.

كان سيختفي، سيزول.

فجأة...

انبثقت الفراخ من بين العتمة.

سماء ماغنوليا، سحابة دائرية وزوبعة.

ظهرت له الفراخ الثلاثة معاً. كانت تطير بأجنحتها الصغيرة. تطير معه وسط العتمة.

آلمه ذلك ألماً فظيعاً.

في الواقع، لم ينجح في تقديم هذه الفرصة لها.

لأنّها ولدت، ولكنّه لم يستطع أن يجعلها تطير بأجنحتها.

المعذرة.

لم أُحسن حمايتكم.

لو لم أبنِ العشّ في هذا المكان، لما قُتِلتُم.

أنا المخطئ في كلّ هذا.

المعذرة. المعذرة ألف مرّة.

في حين كان على وشك أن ينطفئ ويزول، أحسّ جونسون بأنّه جاهزٌ لأن يشتعل.

تمنى لو يأخذ الفراخ تحت جناحَيه.

مع هذا الجرح في القلب، غاص على نحوٍ أعمق بكثير في جوف الظلمات.

غاص وهو يفكّر.

لم أكن أتمنّى أيّ شيءٍ آخر.

كنتُ أريدُ فقط أن أكون معكم.

ومع شعاع أخضر.

مع يويتشي.

نعم، مع يويتشي. أنت الذي فعلتَ كلّ شيء من أجل إنقاذي.

لم أنسكَ أبداً.

ولهذا راقبتُك على الدوام من بعيد.

كنتُ أنظر إليك.

كان يويتشي هناك، على الجانب الآخر من الظلمات التي يعبرها.

كان هو الآخر مستلقياً وسط العتمة.

بدا وكأنّه ينتحب.

يويتشي، لم أستطع سوى أن أنظر إليك من بعيد.

سوف أزول عمّا قريب. ولكن قبل ذلك، لديّ صورة أخيرة أرسلها إليك.

هذه الكلمات التي كانت تربطنا، أنا وأنت.

صرخ جونسون بتلك الكلمات التي أبعدته عن أقرانه.
تلك التي همس بها يويتشي لجونسون دون توقّف، خلال الأسبوع الذي تغيّب فيه عن المدرسة.

اسكت!
يمكنك أن تقضي حاجاتك، ولكن في صمت.
سوف تكون الأمور بخير.
أنا معك، لا تبكِ.

نظر جونسون إلى يويتشي.
كرّس آخر قواه لذلك.
شقّ الهواء معانقاً زواله: أضحى ظلاماً ورياحاً وكلمات.
عيناه شاخصتان إلى الصبي.

139

رفع يويتشي رأسه فجأةً.
أحسّ بوجودٍ ما على الشرفة.
شيءٌ يشبه حفيف جناحَين.
وهو لا يزال يبكي، زحفَ نحو النافذة.
عبر طيفُ طيرِ السماء المرصّعة بالنجوم.
تابعه بعينَيه، ولكنّه اختفى فجأةً.
فتح النافذة.

دخلت ريحٌ باردة.

نعيق طويل وعميق لغرابٍ، مثل صرخةٍ منبعثةٍ من الأحشاء، وصله من مكانٍ غير محدَّد.

جونسون؟

خرج يويتشي إلى الشرفة.

تفحّص الظلمات.

نجومٌ تتلألأ.

سُحبٌ تجول وسط السماء المعتمة.

كان هذا كلّ ما رآه.

فكّر:

غداً، إذا رأيتُ غراباً، ربّما يكون جونسون.

مدَّ يديه نحو السماء.

لا بدَّ أنّ الريح كانت تهبّ قويّةً في الأعلى.

دوريان سوكيغاوا

يويتشي والطير

«أكان السمع؟ أم البصر؟

لم يتذكّر ما بدأتْ به الحكاية».

هكذا تبدأ هذه الرواية الساحرة، التي تجعلنا نسمع ونرى ونشم ونحس ونتأثّر... هذه الرواية التي تُدخلنا إلى أعماق كلّ شخصية، من يويتشي، الطفل الحسّاس، إلى ريتسوكو، الأم المناضلة، وصولاً إلى جونسون، الطير الجريح، وتجعلنا نتعلّق بها ونتعاطف معها ونرى الحياة من خلالها.

بعد رائعة **ملذّات طوكيو**، يحكي لنا دوريان سوكيغاوا مرّة أخرى، بأسلوبه الرهيف، حكاية لقاء غير متوقع، لقاء ما بين عائلة متواضعة والطير الذي أنقذته، ويأخذنا إلى عالم المستضعفين، مُظهراً لنا من جديد قساوة مجتمعاتنا، ويجعلنا نتساءل عن معنى أمور كثيرة مثل الاختلاف، والتهميش، والأفكار المسبقة، والتضامن، والوفاء، والطفولة، والرشد، والأمومة، والطبيعة، ودورة الحياة، بل الحياة نفسها.

إنها أنشودةٌ رائعة عن الحب والصداقة والحياة، بل درسٌ في الحياة، جميلٌ وقاسٍ في آنٍ واحد.

وإذا كان قد قيل عن **ملذّات طوكيو** إنها وليمة تجعلنا «نضحك، نبكي، نتلذّذ» فـ**يويتشي والطير** هي بلا شك تحليق يجعلنا نضحك، نبكي، نتأثّر.

رواية مذهلة، لا يجود بمثلها إلّا الأدب الياباني!


المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com



ISBN 978-9953-68-979-1
